من الملامح الحضارية في الفتوحات الإسلامية

(عصر الراشدين)

تأليف الدكتور
مغاوري عبيد منصور
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد
في كلية اللغة العربية جامعة الأزهر بالزقازيق

الطبعة الأولى
١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م

رقم الايداع بدار الكتب والوثائق القومية
٢٠٠٠/٩٢٧١

مـركــز آيــات للطباعة والكمبيوتر
مساكن لكوظ - الزراعة - الزقازيق
☎ ٠١٢/٣٧٩٧٦٤٧

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمـــــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

وبعـــــد:

فهذا هو الجزء الثانى من سلسلة بحوثنا فى «الملامح الحضارية فى الفتوحات الإسلامية»[١] ويشتمل على عصر الخلفاء الراشدين، وهو العصر الذى ارتسمت فيه سياسة الفتح والجهاد فى ميادين عديدة وبعيدة، التزم فيها الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين منهج النبى ﷺ، ولم تدفعهم قوة جيوشهم ولا سرعة انتشار جندهم إلي الغرور والصلف أو التخلى عن سياستهم السمحة وأساليبهم الرفيعة.

وما كان ذلك إلا لأنهم تربوا على يدى النبى ﷺ، ونهلوا من نبع آدابه وأخلاقه، فترسموا ملامح منهجه الذى رآوه وعايشوه على عهده وفى

(١) سبق نشر الجزء الأول فى سنة ١٩٩٣م تحت عنوان «الملامح الحضارية فى الفتوحات الإسلامية فى العصر النبوى»، وقد احتوى ظروف وأحوال أمم العالم فى مطلع الرسالة الخاتمة، وعالمية الإسلام الذى كانت الأمم أصحاب الديانات السماوية السابقة تعرف عنه وعن نبى آخر الزمان الشيء الكثير، ثم آداب القتال فى الإسلام، وضروريات الفتح وتبليغ الدعوة، ثم كانت الإشارة إلى اهتمام الإسلام والمسلمين بالفتوحات السلمية التى كان البلاغ فيها يسد مسد تجييش الجيوش وإعداد العدة.

أيام حياته بينهم. ومن ثم كُتب لهم النجاح وطويت الأرض أمام جندهم حتى عمت كلمة التوحيد، واستضاءت بها الآفاق، ودان كثير من شعوب الأرض لها، ملتمسين لأنفسهم النجاة والنجاح والخلاص من غياهب الجهالة والظلم التى ترديوا فيها أحقاباً مديدة غابرة.

وقد قسمت منهج الدراسة فى هذا البحث على ما يأتى:

أولاً: المقدمة:

واشتملت مدخلاً للدراسة، ومقتطفات من أقوال المؤرخين المنصفين، الذين نظروا إلى الإسلام وتاريخه نظرة بحثية صادقة مجردة عن التعامى والزيف، واهتممت هنا بأقوال المؤرخين والكتاب الغربيين حتى تكون شهادتهم هذه لسان صدق ورؤيا واقعية تدمغ حجج وادعاءات بنى جلدتهم الذين راحوا يزيفون الواقع ويطمسون الحقائق تجنياً على الإسلام ونيلاً من تاريخه الشامخ والعريق. مع أن أقوال المؤرخين المسلمين فى هذا الجانب غضة ووفيرة، لكن لم أشأ أن أعول عليها كثيراً حتى لا يتهم المسلمون بإطراء تاريخهم والتزيد فى تمجيده، وإن ذلك لحق صراح وواقع بين.

ثانياً: الفصل الأول.

وعنوانه: «**من الملامح الحضارية فى فتوحات بلاد فارس**»

وقد جاء فى مبحثين،

الأول: «دوافع المواجهة بين المسلمين والفرس»

وفيه ألمحت إلى ما كان يمثله الكيان الفارسى على الساحة العالمية آنذاك فى النواحى الدينية والسياسية والعسكرية والاجتماعية، إلى أن

ابتدأت المواجهة بين الفريقين (المسلمين والفرس) حيث يدافع كل طرف منهما عن سيادة شعبه وأرضه وبقائه. وقد جاءت هذه المواجهة متزامنة مع قرب الخلاص من حركات المرتدين من عرب شبه الجزيرة، والتى مثلت المشكلة الأولى التى صادفت الخليفة الأول، فلما استقرت داخلية البلاد كان لزاماً عليه أن يتجه إلى ما تثيره فارس من مشاكل خارجية تجاهه، تمثلت فى غارات وإعتداءات متكررة ضد سكان المدينة المنورة وبواديها.

والمبحث الثانى: «المجابهة الحقيقية بين المسلمين والفرس»

وأشرت فيه إلى ما بذله المسلمون من جهود ومساع سلمية فى أول الأمر بقصد الوصول إلى حل يمنع التصادم والاصطراع وفى مقابل ذلك تعنت الفارسيين وتشددهم، مما أوصل الحال إلى الخيار العسكرى. كما ألقيت نظرة على معسكر كلا الفريقين فى معركة القادسية التى مثلت قمة الصراع بين الطرفين، وباتت نتائجها المنتظرة هى الفيصل الوحيد فى إثبات التفوق لأى منهما.

ثالثاً: الفصل الثاني: «من الملامح الحضارية فى فتوحات بلاد الشام»

وقد سبق بتمهيد أبنت فيه الفوارق الاستراتيجية والحربية بين كلتا الإمبراطوريتين (فارس والروم) بالنسبة للمسلمين. **وقد احتوى هذا الفصل على خمسة مباحث.**

أولها: «سياسة الروم فى أهل الشام»، وقصدت فيه إلى إظهار مدى العلاقة بين الروم المسيطرين والشعوب المستضعفة، وكيف عامل

الروم شعوب امبراطوريتهم، وما كانوا يسوسونهم به فى النواحى الدينية والاقتصادية والاجتماعية، إذ كل هذا كان من شأنه أن يكون عاملاً من عوامل السلب أو الإيجاب فى إقرار العلاقة بين هذه الشعوب وبين المسلمين من بعد الفتح.

ثم كان المبحث الثانى بعنوان: «الفرس وسياستهم فى أهل الشام» وفيه قصدت إلى إبراز ماكانت عليه سياسة الفرس لأهل الشام حين غلب الفرس وتسيدوا فى هذه البلدان مدة من الزمان. وبهذا تتضح العلاقات الدينية والسياسية بين القوتين العظيميين آنذاك، وهما أتباع رسالات سماوية سابقة! ثم لنقيس عليه ما كان من المسلمين بعد الفتح من حسن معاملة لهذه الشعوب بما يظهر أن الدين الإسلامى كان بالفعل الدواء الناجع لكل ما كان قد حل بالبشرية من علل وأسقام.

أما البحث الثالث، بعنوان: «حروب الروم لإخراج الفرس وأثرها على السكان فى الشام ومصر»

فقد أشرت فيه إلى ما تبع الغزو الفارسى لبلدان الإمبراطورية البيزنطية من جهاد مرير قام به الروم لتخليص ولاياتهم، مستنزفين فى أثنائه خيرات هذه الشعوب وأقواتها، وصولاً إلى غاياتهم السياسية، ومن ثم فقد تحملت هذه الشعوب من العنت والقهر على يد غزاتهم مالم تكن لهم به طاقة، سواء عندما غزاهم الفرس، أو عندما هم الروم بإخراجهم من البلاد.

والمبحث الرابع: «فتوحات المسلمين فى الشام»

ويحتوى نقطتين غاية فى الأهمية. فى الأولى، أشرت إلى طريقة المسلمين السمحة والمتحضرة فى معاملة الأهالى فى الشام، وأن لم يكن هؤلاء هم المقصودون بالحرب، بقدر ما كانت الحكومة البيزنطية هى المعنية بذلك.

أما النقطة الثانية، فعالجت فيها رؤية أهالى فى الشام للحكم الإسلامى، مقارناً بما كانوا عليه فى أيام حكم البيزنطيين، وأثر ذلك فى تحولهم إلى الإسلام. واهتممت هنا بالجوانب السلوكية والحضارية فى سرد الأحداث، أكثر مما اهتممت بتفصيل الوقائع الحربية. حيث ذلك قد تناوله الكثيرون من قبلى بالدراسة المستفيضة.

أما المبحث الخامس والأخير فى هذا الفصل، والذى جاء بعنوان: «فتح المسلمين لبيت المقدس وشكله الحضارى»:

فقد أبنت فيه اهتمام المسلمين بحرمة المدينة وقداستها، وإجابتهم للنصارى فيما طلبوه، ومدى الرفق الذى لابس دخول الخليفة والمسلمين معه المدينة، مما لا يبقى مجالاً للمقارنة بين دخول المسلمين لبيت المقدس، ودخول أى من عداهم لها من بعد. لتظل تلك سمة لروح الإسلام وجنده، يستحيل أن يتقمصها أى غاز أو فاتح جديد.

وجاء الفصل الثالث: «فتح المسلمين لمصر وأبعاده الحضارية» يحتوى خمسة مباحث:

الأول: الروم فى مصر. وفيه إشارة لسياسة الروم البيزنطيين دينية كانت أم سياسية، فى مصر التى يدين أهلها بديانة الروم، تلك السياسة التى كانت وبالاً على القبط، قاسوا من جرائها الويلات والخراب، كما سيتضح.

ثم المبحث الثانى: «الفرس فى مصر» فى فترة التسلط الفارسى التى كانت قبيل دخول المسلمين إلى مصر فاتحين بقليل زمن، وما جره التسلط الفارسى على المصريين من ويل ونكال، بات أثره واضحاً فى إحراق وتدمير كنائس وأديرة النصارى وتشريدهم.

وفى المبحث الثالث: «مسيرة الفتح الإسلامى فى مصر». تناولت الكيفية التى دخل بها المسلمون مصر، وأن كانت القيادة السياسية فى مصر على علم بما عليه المسلمون وسياستهم فى البلاد التى سبقت مصر فى الفتح. ومن ثم كانت المراسلات بين عمرو بن العاص والمقوقس حاكم مصر، ثم ماكان من أمر المصالحات بينهما، سواء فى صلح بابليون أولاً، أم فى صلح الإسكندرية آخراً.

وجاء المبحث الرابع: معاملة المسلمين للأقباط بعد أن صاروا ذمة: لأبين فيه ما صار إليه حال القبط فى مصر بعد سيادة الحكم الإسلامى، وكيف تنفسوا الصعداء، ومارسوا حرياتهم الدينية، وحياتهم الاجتماعية، فى ظل حكم المسلمين، بشكل أوفى مما كانوا عليه فى ظل حكم الروم إخوانهم فى العقيدة!.

أما المبحث الخامس والأخير، فكان عن: مكتبة الإسكندرية ومسألة إحراقها. وهو موضوع وإن كان قد استوفى حظه من الدراسة من قبل، لكن كان لزاماً أن نشير إليه فى بحثنا هذا، ونؤكد على أن المسلمين براء من تهمة إحراق المكتبة، بكل ما اجتمع لدينا من أدلة، ونوجه الاتهام إلى الفعلة الحقيقيين.

وإذا كان الحق ما نطقت به الأعداء فإنا نسوق فى هذه التقدمة بعضاً من النصوص الكثيرة التى جاءت فى كتابات المنصفين من مؤرخى وكتاب الغرب، وأيضاً غير المنصفين الذين كانت الحقيقة تطويهم - أحياناً - فيثبتون شيئاً من حقائق ووقائع الفتوحات الإسلامية البارزة والرائعة.

ومن هذه المقولات:

«أدرك الخلفاء السابقون - الذين كان عندهم من العبقرية السياسية ما ندر وجوده فى دعاة الديانات الجديدة - أن النظم والأديان ليست مما يفرض قسراً، فعاملوا أهل كل قطر استولوا عليه بلطف عظيم، تاركين لهم قوانينهم ونظمهم ومعتقداتهم، غير فارضين عليهم سوى جزية زهيدة فى الغالب إذا ما قيست بما كانوا يدفعونه سابقاً، فى مقابل حفظ الأمن بينهم، **فالحق أن الأمم لم تعرف فاتحين متسامحين مثل العرب، ولا ديناً سمحاً مثل دينهم»** (د/ غوستاف لوبون)[1] .

---

(١) حضارة العرب، مقدمة الكتاب. ترجم الكتاب: عادل زعيتر، مطابع الحلبى بمصر ١٩٦٩م.

«على أن الرعايا الرومية كانت فرحة بحكم الإسلاميين، لما رأت من صدقهم فى المعاهدات والمعاملات، وعدم تعسفهم وإجحافهم، فأخذ الروم يسلمون، وكل من نطق منهم بالشهادتين تثبت له الحقوق الإسلامية» (ل.أ.سيديو)[١] .

«....ولكنهم -أى المسلمون- لم يكونوا فى حروبهم همجاً متوحشين» (ول . ديورانت)[٢] .

«ولما فتح العرب مصر سنة ٦٤٠م أباح عمرو بن العاص حرية العبادة، وتودد إلى الرهبان فأعفاهم من الجزية، وأراحهم من جميع المتاعب، ونشر العدالة بين جميع الناس» (القمص/ صموئيل تاوضروس السريانى)[٣] .

«لم تنتشر المسيحية إلا بعد قرون عدة من الشدة والآلام، أما الإسلام فكان علس العكس من ذلك، إذ لم يكد يمض على ظهوره اثنا عشرة عاماً حتى اعتنقه شعب بأكمله على استعداد للتضحية والقيام بأعمال الفتح» (فان فلوتن)[٤] .

«إن السادة والحكام المسلمين الجدد لم يزجوا بأنفسهم فى شئون تلك الشعوب الداخلية، فبطريرك بيت المقدس يكتب فى القرن التاسع لأخيه

---

(١) خلاصة تاريخ العرب، ص ٧٢، «طبعة ثانية» بيروت ١٤٠٠هـ.
(٢) قصة الحضارة ١٣/٧٣، ترجمة/ فؤاد أندراوس، القاهرة ١٩٨٦م.
(٣) الأديرة المصرية العامرة، ص ٩٢ «طبعة أولى» القاهرة ١٩٦٨م.
(٤) السيادة العربية فى عهد بنى أمية، ص ١٤، ترجمة د/ حسن إبراهيم حسن ومحمد زكى إبراهيم «طبعة أولى» القاهرة ١٩٤٣م.

بطريرك القسطنطينية عن العرب[1] : «إنهم يمتازون بالعدل، ولا يظلموننا البتة، وهم لا يستخدمون معنا أى عنف» (زيغريد هونكة)[2] .

«ولعل من أهم عوامل انتصارات العرب هو ما فوجئت به الشعوب من سماحتهم، حتى إن الملك الفارسى كيروس Kyros نفسه قال: إن هؤلاء المنتصرين لا يأتون كمخربين، فما يدعيه بعضهم من اتهامهم بالتعصب والوحشية إن هو إلا مجرد أسطورة من نسج الخيال تكذبها آلاف الأدلة القاطعة عن تسامحهم وإنسانيتهم فى معاملاتهم مع الشعوب المغلوبة» (زيغريد هونكة)[3] .

ومن ثم يمكننا أن نخلص إلى ما أثبته بعض المؤرخين المسلمين، ونستشهد بمثالين اثنين يؤكدان على كل هذه الحقائق الثابتة التى مرت:

الحقيقة الأولى: وتأتى فيما قاله جلال مظهر[4] فى هذا الصدد، حيث قال: «إن ما عجز الأغارقة والفرس والرومان عن تحقيقه فى الشرق استطاع العرب (المسلمون) أن يحققوه بسرعة فائقة وبغير إكراه .....» .

الحقيقة الثانية: وتأتى فى قول الدكتور/ حسين مؤنس: «..... والفتوح فى العصر الراشدى وما بعده ما كانت قط حروباً على شعب،

---

(١) المقصود بالعرب هنا هم المسلمون، لولا أن اعتاد كتاب الغرب على اختيار اسم «العرب» ربما لكراهيتهم أن يسموهم «بالمسلمين»، أو لعلهم لم يفصلوا بين تاريخ العرب السابق وتاريخهم فى الإسلام.

(٢)،(٣) شمس العرب تسطع على الغرب ص ٣٦٤، ٣٥٧ ترجمة/ فاروق بيضون وكمال دسوقى، بيروت ١٩٦٩م.

(٤) مآثر العرب، ص ٥٣.

وإنما على أعداء الشعوب، فلم يحارب العرب (المسلمون) أهل الشام أو أهل مصر، وإنما حاربوا الروم الذين كانوا يسخرون أهل الشام وأهل مصر لمصالحهم ومصالح دولتهم، وكانوا يعارضون دخول الإسلام تلك البلاد حفاظا على مصالحهم... وعندما فتح المسلمون العراق وفارس لم يحاربوا أهل العراق أو أهل فارس، وإنما حاربوا الأكاسرة»[1] .

إلى غير ذلك من الشواهد التى تدل على نبل الفاتحين المسلمين وسماحتهم ونزاهة أسباب الفتوحات ووسائلها، وهى شواهد كثيرة جداً، لعلها تأتى تباعاً فى مواطنها من البحث.

وفى نهاية البحث أجدنى مدفوعاً إلى التنويه عما يحدث للمسلمين اليوم – فوق ما حدث لهم فى أيام خلت – على أيدى أعدائهم من غير المسلمين، وأمثلة ذلك باتت عديدة ومريرة، وكل حروفها تنطق بالتقتيل والتشريد، وانتهاك الحرمات، واغتصاب العذارى، وانتهاب الأراضى والأملاك فى شكل صاخب، وجرم مفضوح، بلا ذنب ولا جريرة، سوى أن هؤلاء المسلمين يقولون: ربنا الله، ويؤمنون برسالته، ويصدقون بنبيه الخاتم، ويحفظون كتابه الكريم!!.

---

(١) الإسلام الفاتح ص ٣ ،طبعة أولى، ١٩٨٧م.

الفصل الأول

من الملامح الحضارية
في فتوحات بلاد فارس



المبحث الأول
دوافع المواجهة بين المسلمين والفرس

ابتدأت خيوط المواجهة مع الفرس منذ أن أرسل النبى ﷺ رسوله عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى عظيم الفرس، حاملاً معه كتاب النبى الكريم يدعوه فيه إلى الإسلام، انطلاقاً من مسئولية تبليغ الدعوة لكل العالمين، والتى كُلف بها النبى ﷺ والمسلمون من بعده.

إذ أنه حين قرأ كسرى الكتاب ووجد اسم النبى ﷺ مقدما على اسمه استشاط غضباً، ومزق الكتاب، وكتب إلى عامله على اليمن يأمره بأن يأتيه برأس محمد، ففعل العامل ما أمر به ولكن مهمته باءت بالفشل[1].

وكان فى الكتاب الذى حمله عبد الله بن حذافة إلى كسرى فارس (برويز بن هرمز): «بسم الله الرحمن الرحيم. من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس. سلام من اتبع الهدى وآمن بالله ورسوله، وشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله إلى الناس كافة، لينذر من كان حياً. أسلم تسلم: فإن أبيت فعليك إسم المجوس»[2].

فلما وصل الكتاب إلى كسرى أخذته العزة بالإثم، واستهواه السلطان، إذ رأى أنه من آل ساسان الملوك الجبابرة، ذوى السيادة على اليمن والحيرة، فكيف يستمع لكلام النبى العربى ويدخل فى الإسلام ويصير تابعاً

---

(١) جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى ٤٢/١، بيروت (بدون).

(٢) الطبرى: (أبو جعفر محمد بن جرير) ت٣١٠هـ: تاريخ الرسل والملوك ٦٤٩/٢، ٦٥٠ «بتصرف، تحقيق د/ محمد أبو الفضل إبراهيم «طبعة رابعة، ١٩٧٩م.

لعرب الحجاز الذين هم فى نظره ليسوا بأعلى منزلة من عرب الحيرة واليمن التابعين له والخاضعين لسلطانه!.

لابد أن هذه الأفكار كلها قد دارت فى رأسه فحملته على أن يمزق الكتاب، ويرسل إلى «باذان» عامله على اليمن بكتاب يقول فيه: «إبعث إلى هذا الرجل الذى بالحجاز رجلين من عندك جلدين فليأتيانى به»!، وبلغ النبى ﷺ أن كسرى قد مزق كتابه فقال: «مزق الله ملكه» وجاءه رسولا باذان، فأمهلهما إلى الغد، فلما كانا من الغد أخبرهما النبى أن الله قد سلط على كسرى ابنه «شيرويه» فقتله، وكان الوحى قد نزل عليه بذلك. وقال للرجلين فيما قال لهما: قولا له (أى لباذان): إن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ ملك كسرى... وقولا له: إنك إن أسلمت أعطيتك ما تحت يدك، وملكتك على قومك»[1].

«فلما عاد الرسولان إلى باذان وقصا عليه ما أخبرهما به النبى ﷺ قال: لننظرن ما قد قال، فإن كان هذا حقاً فإنه لنبى مرسل، وإن لم يكن فسنرى رأينا. فلم يلبث أن أتاه كتاب من شيرويه، وإذا فيه: «أما بعد، فإنى قتلت كسرى، ولم أقتله إلا غضباً لفارس، لما استحل من قتل أشرافهم، فإذا جاءك كتابى هذا فخذ لى الطاعة ممن قبلك، وانظر الرجل الذى كان كسرى كتب فيه إليك، فلا تهجه حتى يأتيك أمرى فيه»[2] .

---

(١) تاريخ الطبرى: ٦٥٦/٢.

(٢) تاريخ الطبرى ٦٥٦/٢، ابن الأثير: (عز الدين أبى الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى) ت ٦٣٠هـ: الكامل فى التاريخ ٢١٣/٢، بيروت ١٩٧٩م.

عندئذ تحقق المرزبان من صدق نبوءة الرسول ﷺ فأعلن إسلامه، وأسلم معه كثير من الفرس الذين كانوا ببلاد اليمن، فتلك لعمرى معجزة من معجزات النبى ﷺ ، حيث أخبره ربه باغتيال كسرى فأعلن لرسولى باذان خبر موته فى يوم اغتياله، وقبل أن يصل خبر ذلك إلى بلاد اليمن فلا يجرؤ على إنكار هذه المعجزة إلا مكابر معاند.

فى هذه القصة أيضاً ما يؤكد على أن أكاسرة فارس كانوا معاندين معارضين لظهور أية قوة أجنبية أخرى من حولهم، وهذا واضح من تصرف كسرى تجاه رسالة النبى ﷺ . وسوف يتضح دائماً من كل مواقفهم التى ستعقب هذا، حيث لا مجال عندهم لإعمال العقل، ولا وقت للروية، وإن كان أمر باذان ومن أسلم معه باليمن يضيف هو الآخر سبباً قوياً للدراسة والتأنى، ولكن هيهات، فهذه الأسرة الحاكمة قد ألهتها السلطة وغرها الجاه فأهملت ما عداهما.

ومن ثم ، فإنه قبل أن نستطرد فى سرد دوافع المجابهة بين الفريقين (المسلمين والفرس) يجب أن نطالع الصفة السياسية العامة لملوك الفرس آنذاك ثم ننوه إلى ما كانت عليه أحوال الشعوب السياسية والدينية والاجتماعية.

فمن الناحية السياسية، كانت دولتا الفرس والروم تمثلان قطبى القوة والسيادة فى العالم أجمع آنئذ، والصراعات والحروب بينهما لا تنقطع فى محاولة من كلتيهما لإحراز النصر العسكرى وإثبات التفوق السياسى والتأثير فى المحيط العالمى، ومن ثم فقد كانت العداوة بينهما

قديمة، ربما تجاوزت القرن الخامس قبل الميلاد[١] ، واتصلت تلك العداوة إلى زمن الإسكندر الأكبر، ثم اتصلت فى عصور الرومان وإلى أيام الإسلام، وكثيراً ما جرت كلتاهما الخراب على الأخرى بحروبها العوان[٢] .

وأما من الناحية الدينية والاجتماعية، فقد كانت دولة الفرس تقوم على الكثير من المبادئ الفوضوية الهدامة، تتعدد فى ظلها المعتقدات الخرافية التى يضعها الملوك والسادة بأنفسهم، أو يدعيها كل من تسول له نفسه الإدلاء بدلو فى هذا السبيل، فكان الأكاسرة ملوك فارس يدعون أن الدم الإلهى يجرى فى عروقهم، مما حدا بالشعب أن ينظر إليهم كآلهة، ويعتقد أن فى طبيعتهم شيئاً علوياً مقدساً، فكانوا يقدمون القرابين بين أيديهم، وينشدون الأناشيد بألوهيتهم، ويرونهم فوق القانون، وفوق الانتقاد، وفوق البشر[٣] .

كما كانت حالتهم الاجتماعية فى غاية الانحطاط قبل الإسلام بمدة طويلة، لانشقاق عصاهم بتشعب المذاهب التى أخذوها عن «مانى» و«مزدك»، فقد كان من غرائب دعوى هذا الأخير أن إلهه بعثه ليأمر بشيوع النساء والأموال بين الناس على السواء، لأنهم إخوة أولاد أب

---

(١) جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى ١/ ٤٢.

(٢) و ل. ديورانت: قصة الحضارة ١٤/ ١٥٢، ترجمة: محمد بدران، طبعة ثالثة القاهرة ١٩٧٤م.

(٣) تاريخ الطبرى: ٢/ ٤١.

واحداً، وهكذا ظلت الأحوال تأخذ طريقها إلى الأسوأ، وتشعبت الآراء وفسدت الأخلاق[1] .

وعليه، فإنه إذا كانت هذه الإلمامة السريعة عن حال دولة الفرس لا تمثل إلا إشارة عابرة، حيث الأمر يتطلب بحوثا ومؤلفات عديدة، إلا أنها تحدد لنا ملامح المنظور الفارسى للقوة المتنامية فى دولة الإسلام؛ فمن حيث الناحية السياسية، يصبح من الصعب على كسرى فارس أن يذعن لدعوة الإسلام أو يتلقاها بعقل وروية، وهو المتسيد فى شعبه الذى يمجده ويثق فى وكالته عن الإله فى حكم الرعية التى هى بدورها لا ترى أقرب إلى الإله منه، ولا تتقرب إلا له، ولا تنزه إلا ذاته وأسرته.

ومن حيث حياة الشعب الاجتماعية، فإن حياة الإباحية والمروق تشجيه وتعدد الآراء وتشعبها يريح وجدانه، مادام ينطلق فى حياته البوهيمية لا يخاف من رادع ولا يخشى عذاب ضمير. ومن ثم تصبح مسألة الدعوة إلى الإسلام عبئاً على كلا الطرفين: الحاكم والمحكوم؛ لأنها تُقلص سيادتهم، وتحد من إباحيتهم، وتضيع هيبة دولتهم حين يصبحون أتباعاً لدولة ناشئة كانت إلى أيام قريبة تتوارى فى الظل، وهى دولة العرب التى بدأت مع ظهور الإسلام. وعليه فقد كان رد كسرى على رسالة النبى ﷺ خارجاً من هذا المنطلق ومدفوعاً بهذا المنطق، حاملاً دلالة كبرى من دلالات التحدى الذى أظهره الفرس عندما شعروا بنمو الدولة الإسلامية وتعاظم شأنها.

---

(١) جورجى زيدان: نفس المرجع ٤٨/١.

ومن جانب آخر، فإن العديد من المرتدين والمتمردين فى شبه الجزيرة العربية قاموا باللجوء إلى المناطق الخاضعة للعراق وإيران[1]، ومنها بدءوا فى الإغارة على المناطق الإسلامية، وأخذت الحكومات هناك تعضدهم وتساندهم مساندة واضحة، وتقوم بحمايتهم، مما استدعى ضرورة أن تولى القيادة الإسلامية هذه الجهات المصدرة للخطر اهتمامها، وتعد لصده ومنعه، وكان هذا الخطر يتمثل فى عرب الحيرة التابعين للفرس، حيث قاموا باعتداءات وغارات متكررة على المسلمين المجاورين لهم.

وعلى ما سبق، فإنا نجد أن المسلمين قد اضطروا إلى هذه المجابهة مع الفرس وأنهم (أى المسلمين) لم يكونوا البادئين بالعدوان، وذلك تنفيذاً لأوامر القرآن الكريم التى تجوز القتال بعد وقوع الاعتداء من الطرف الآخر: ﴿ **وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ** ﴾[2] . ومن ثم لم تكن حروب المسلمين مع الفرس تختلف عن غيرها من حروبهم مع أى من الأقوام الأخرى؛ فجميعها كانت ذات طابع دفاعى، ليس لها هدف فى إشعال نار الحرب أو الانتقام من الآخرين.

ولقد أعترف بذلك كثير من مؤرخى الغرب وكتابه المنصفين الذين درسوا ظاهرة الفتوحات الإسلامية دراسة موضوعية وأمينة، فقادتهم دراستهم هذه إلى الاعتراف بحق المسلمين المشروع فى حروبهم، وتأكدوا

---

(١) محمد فتح الله الزيادى: انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه، ص ٢٢ ،طبعة أولى، بيروت ١٩٩٠م.

(٢) الآية ١٩٠ من سورة البقرة.

جيداً أن المسلمين أصحاب عقيدة يزودون عنها،ويهبون أرواحهم فى سبيل المحافظة عليها وإيصالها إلى شعوب الأرض كافة، دون إلزام لأحد بها.

فيقول المستشرق (مارسيل بوازار): «لقد أجبرت الضرورات النبى محمداً على تأليف جيش لصد الهجمات المعادية وإرسال حملات وقائية من الجيران الخصوم. ولما كان رجلاً مستقيماً وسياسياً مرهفاً ومخططاً بارعاً، فقد استشعر ضرورة ردع أعداء مجتمعه، وكان عليه قمع غارات السلب والنهب وتوفير السلام والأمان على طريق القوافل. وأخيراً كانت القوة المسلحة تبدو فى نطاق الحروب النبلية التى كانت تمزق أوصال الجزيرة العربية ضرورة حيوية كى لا يتجرأ أعداء الإسلام ويتعرض للخطر وجود الدولة التى كانت فى أولى مراحل نموها، وهكذا تكتسب المعارك حتى التى كان النبى يبدأ بشنها طابع الرد على الاستفزاز أو التدبير الاحترازى لحماية النفس»(١) . وفهم هذا المعنى أيضاً ول ديورانت، فقال عن تحضيض الإسلام على الجهاد، سواء فى القرآن الكريم أو أحاديث النبى ﷺ : «لكن هذه المبادىء الأخلاقية الحربية ليست فى واقع الأمر تحريضاً على القتال»(٢) .

فى مواجهة هذه الاعتداءات التى قام بها عرب الحيرة ضد المسلمين اضطرت القبائل المسلمة الموالية للحكومة الإسلامية فى المدينة المنورة إلى

---

(١) محمد فتح الله الزيادى: نفس المرجع ص ١٢٣.

(٢) قصة الحضارة ٦٧/١٣.

الرد على هذه الإغارات الموجهة ضد حدودها، وقد طلب **المثنى بن حارثة الشيبانى** الإذن له بالهجوم على المناطق التى تنطلق منها الغارات لصدها وردعها، ولكن لم يسمح له فى البداية.

فلما أحيط الخليفة الأول بخبر تلك المناطق المعادية، وأدرك حقيقة الموقف وخطورته، أذن **للمثنى** باتخاذ الإجراءات المناسبة. ومن المؤكد هنا أن سماح الخليفة الأول **المثنى** بالرد على هذه الاعتداءات قد كان وليد الحاجة والضرورة؛ حيث الساحة الإسلامية حينذاك مشغولة بقمع حركة المرتدين وتسكينها، وإعادة العرب إلى ما كانوا عليه قبل وفاة النبى ﷺ، وفى سبيل هذا فجيوش الدولة مهمومة بهذا الأمر منصرفة إليه.

وإذ قد بات من الضرورى الاهتمام بهذه الجبهة مكمن الخطر، فإن **أبا بكر الصديق** رضي الله عنه قد كتب إلى خالد بن الوليد - أشهر قواده فى حروب الردة - فى سنة (١٢هـ)[1] أن ينطلق من اليمامة بعد أن قضى على آخر معاقل المرتدين إلى ناحية الحدود العراقية لمساعدة المثنى ومن معه من المجاهدين[2] وهكذا ابتدأت الفتوحات الإسلامية فى الجبهة الفارسية، حيث جاءت هذه البداية كمجرد رد فعل لتلك الغارات التى انطلقت من هذه النواحى صوب بلاد المسلمين، والثأر لهؤلاء الذين هوجموا فى ديارهم، فكان توجه خالد بن الوليد إلى قرى سواد العراق التى تسكنها

---

(١) تاريخ الطبرى ٤/١٥٩.

(١) محمد ياسين مظهر (الدكتور): الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامى ص ١٠٩، ترجمة/ د: سمير عبد الحميد إبراهيم. مطبوعات رابطة الجامعات الإسلامية (بدون).

أكثرية من عرب المناذرة. ومن هذه القرى التى مر بها خالد: «بانقيا» و«باروسما» و«أليس» وكان من أظهر زعمائها «ابن صلوبا» الذى قبل المصالحة مع المسلمين على أن يؤدى إليهم الجزية.

ومن ثم كتب لهم خالد بن الوليد كتاب أمان جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم من خالد بن الوليد لابن صلوبا السوادى (ومنزله بشاطىء الفرات)، إنك آمن بأمان الله، وقد أعطيتنا عن نفسك وعن أهل خرجك وجزيرتك ومن كان فى قريتيك: (بانقيا رباروسما) ألف درهم فقبلتها منك، ورضى من معى من المسلمين بها منك، ولك ذمة الله وذمة محمد ﷺ، وذمة المسلمين على ذلك»[1] .

ثم أقبل خالد بجنده حتى نزل الحيرة، فخرج إليه أشرافهم مع قبيصة بن إياس بن حية الطائى (وكان أمره عليها كسرى بعد النعمان بن المنذر)، فقال له ولأصحابه: أدعوكم إلى الله وإلى الإسلام. فإن أجبتم إليه فأنتم من المسلمين لكم مالهم وعليكم ما عليهم، فإن أبيتم فالجزية، فإن أبيتم الجزية فقد أتيتكم بأقوام هم أحرص على الموت منكم على الحياة، جاهدناكم حتى يحكم الله بيننا وبينكم فقال له قبيصة : مالنا بحربك من حاجة، بل نقيم على ديننا ونعطيك الجزية، فصالحهم على تسعين ألف درهم. فكانت أول جزية وقعت بالعراق هى القريات التى صالح عيها ابن صلوبا[2] .

---

(١) تاريخ الطبرى ٤/١٥٩.

(٢) تاريخ الطبرى ٤/١٦٠.

وهنا يلزم أن نبين فى إشارة سريعة أمر الجزية، ودوافع المسلمين فى فرضيتها، وأهميتها كخيار من خيارات ثلاثة، كان المسلمون يعرضونها على أهالى وشعوب البلدان المفتوحة، وهو موضوع تناوله كثيرمن المؤرخين والمستشرقين، وتزيدوا فيه بالنسبة للجزية فى الإسلام.

فمما هو مقرر وثابت فى روايات أحداث الفتوحات الإسلامية لدى جميع المؤرخين والرواة (مسلمين وغير مسلمين) أن الخطة التى سار عليها كل قادة هذه الفتوحات إذا دخلوا بلاداً أجنبية أو قاربوها قاموا بتخيير أهلها بين ثلاثة أمور: فهم أولاً يعرضون عليهم الدخول فى الإسلام، وهى دعوة التبليغ التى كلف بها المسلمون بعد وفاة نبيهم ﷺ ، حتى يعم هدى الإسلام كل الناس. فإذا دخل الناس فى الإسلام أو بعضهم يصبح من المقرر لهم كل ما هو ثابت للمسلمين، ويكون عليهم من الواجب مثل ما على المسلمين، فهم بالإسلام كالمسلمين سواء بسواء.

وإن لم يقبلوا بالإسلام كلهم أو بعضهم، فإنهم حينئذ يطالبون بدفع الجزية لدولة الإسلام فى مقابل حمايتهم والدفاع عن دمائهم وأموالهم وأرضهم، ويبقون على معتقداتهم وأعرافهم لا يجبرون على تركها ولا يضطرون إلى اعتقاد الإسلام.

فإن لم يقبلوا بدفع الجزية يكون الخيار الثالث وهو القتال حتى يحكم الله بين الفريقين، فإما أن ينتصر المسلمون وتعلو كلمتهم، أوالعكس فيعود الحال إلى ما كان عليه. ومن ثم يتأكد لنا ولكل دارس لتاريخ الإسلام أن المسلمين ما كانوا يخرجون للقتال أولاً، بل كان ذلك آخر الخيارات على عكس ما حاول إثباته كثيرون من مؤرخى الغرب المتعصبين الذين

تعاموا عن الحقائق، بل وعمدوا إلى تزييفها، حيث أثبتوا أن المسلمين ما كانوا يخيرون أعدائهم إلا بين اثنتين: الإسلام أو السيف، لكن فريتهم هذه باطلة وحجتهم مدحوضة، حيث أثبت واقع الأحداث خلاف ذلك وأقر به كثير من منصفيهم.

فمما يشهد بهذا قول ول. ديورانت: «**ولم يكن الأعداء يخيرون بين الإسلام والسيف، بل كان الخيار بين الإسلام والسيف والجزية ....**»[1] . ومن ثم كانت أهمية الجزية فى تاريخ الفتوحات الإسلامية فلولاها ما كان أمام الأعداء من خيار بعد الإسلام إلا السيف، وهنا فقط كان يمكن للطاعنين على الإسلام أن يغتنموها فرصة ويدللوا لفريتهم بأن الإسلام ما انتشر إلا بحد السيف. على أنهم رغم كل هذا كثيراً ما يصرحون بهذه الأكذوبة التى تصدى لتبرئة المسلمين منها كثير من المؤرخين والرواة الذين اتصفوا بالنصفة والحياد.

---

(١) قصة الحضارة ١٣/٧٣، مع مراعاة أنه قدم السيف على الجزية وهو خلاف الواقع، لكنه على الأقل لم يتغافل الخيار الثالث وهو الجزية.

المبحث الثانى
المجابهة الحقيقية بين المسلمين والفرس

ونعود إلى الحديث عن بدايات الفتح الإسلامى فى بلاد فارس، حيث إن **خالد بن الوليد** قد جاب بجنده بلاد وقرى سواد العراق من جهة المدينة، وكتب لكل مدينة أو قرية كتاب أمان على غرار ما كتب **لابن صلوباالسوادى** فى (بانقيا وباروسما)، **وقبيصة بن إياس** فى(الحيرة).

ولابد أن نتذكر هنا منهج **أبى بكر الصديق** الذى وجه قواته لتسكين هذه البلاد وإنهاء غاراتها على المدينة، فقد كان منهجه رضي الله عنه واضحاً من يوم أن أخرج سرية **أسامة بن زيد** قائد أول جيش حارب بعد وفاة النبى ﷺ، حيث ودعه موصيا إياه وجنده قائلا: «أيها الناس. قفوا أوصيكم بعشر فاحفظوها عنى: لا تخونوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا طفلاً صغيراً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأة، ولا تعقروا نخلاً ولا تحرقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة، وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع، فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له»[1].

وهكذا كان أسلوب المسلمين فى قتال الأعداء، أسلوب أمن وأمان، مبنى على مبدأ الدفاع عن النفس، منزه عن كل ما يلابس أعمال الحرب من قتل بلا هدى، وتدمير بلد العدو وتحريق زرعه وثماره، فهو بهذا أسلوب قتالى جديد يشهد بإنسانية المسلمين، وعمق الدرس الدينى والحضارى الذى تلقوه على يد معلمهم الأول محمد ﷺ. ومن ثم فلم تكن

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٢٢٦، ٢٢٧.

وصية **أبى بكر** لجنده ناتجة عن اجتهاد شخصى، وإنما كانت نابعة من منهج القرآن الكريم الذى هذب النفوس ووضع القواعد والأسس التى تنظم كل شئون الحياة، فإن **أبا بكر** فى وصيته هذه يتمثل قول الله تعالى: **﴿ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ﴾**[(١)] .

وحتى فيما بعد الحرب وانتهاء القتال كانت للمسلمين سلوكيات جديدة لم تظهر من قبل فى معاملة الأسرى وشعوب البلدان، فهى ليست معاملة منتصر لمهزومين تسودها روح التشفى والانتقام، كلا بل هى معاملة قوم مسلمين لجيران لهم جدد، أو رعايا مكفولين برعاية الدولة وعدالتها.

ومن شواهد التاريخ على ذلك ما وقع **لجابان** أحد ملوك فارس حين التقى بقواته الفارسية مع المسلمين فى موقعة النمارق على عهد **عمر بن الخطاب** رضي الله عنه حيث هُزم الفرس وأصاب المسلمون منهم ما شاءوا، وبصر **مطر بن فضة** (أحد جند المسلمين وكان ينتسب لأمه)[(٢)] وصاحب له يدعى **أُبَىّ بن رجلٍ** عليه حلى، فشدا عليه فأخذاه أسيراً، فوجداه شيخاً كبيرا، فزهد فيه **أُبـــى**، ورغب **مطر** فى بدائه، فاصطلحا على أن سلبه **لأبى**، وإساره **لمطر**، فلما خلص به **مطر** قال له الرجل: إنكم معاشر العرب أهل وفاء، فهل لك أن تؤمننى وأعطيك غلامين أمردين خفيفين فى عملك وكذا وكذا (يعنى سمى له أشياء أخرى لم يذكرها الراوى)، قال **مطر**: نعم، قال فأدخلنى على ملككم حتى يكون ذلك بمشهد منه، فأدخله على **أبى**

---

(١) الآية: ١٩٠ من سورة البقرة.

(٢) تاريخ الطبرى ٣/ ٤٥٠.

عبيد بن مسعود[1] ، **فتم له على ذلك، فأجاز أبوعبيد، فقام أبى وناس من ربيعة، فأما أبى** فقال: أسرته أنا وهو على غير أمان، وأما الآخرون فعرفوه، وقالوا: هذا الملك **جابان** ، وهو الذى لقينا بهذا الجمع، **فقال أبو عبيد** : ما ترونى فاعلاً معاشر ربيعة؟ أيؤمنه صاحبكم وأقتله أنا؟! معاذ الله من ذلك[2] .

كما يورد **جورجى زيدان** فى ذلك قوله:... والسلمون لم يهاجموا مدن الشام والعراق رأساً، ولكنهم قضوا زمناً طويلاً يغزون ضواحيهما مما يلى البادية وسكان تلك البادية عرب مثلهم، وفيهم الغساسنة فى بصرى وغيرها من حوران على حدود الشام، والمناذرة بنو لخم فى الحيرة على حدود العراق، ولم يكن هؤلاء العرب يحبون الروم ولا الفرس، وإنما كانوا يخضعون لهم قسراً أو طمعاً فى الغنائم إذا حاربوا معهم، وخصوصاً بنو لخم، فقد كان بينهم وبين الفرس ضغائن على إثر مقتل **النعمان بن المنذر** الملقب **أبا قابوس**، فإن كسرى **أبرويز** قتله وحصلت بسبب قتله وقعة شهيرة بين الفرس والعرب، فى مكان يقال له «ذى قار» وبه تعرف الواقعة، فيها انهزم الفرس شر هزيمة، وهى أعظم واقعة انتصف فيها العرب من العجم. وظلت الضغائن بين المناذرة والفرس حتى جاءهم المسلمون، وعرض عليهم **خالد بن الوليد** الإسلام أو الجزية أوالسيف، فاختاروا الجزية وصالحوه على ما يدفعونه كل عام[3] .

---

(١) كان أبو عبيد بن مسعود هذا قائد أول بعث بعث به عمر بن الخطاب إلى العراق بعد استخلافه.

(٢) تاريخ الطبرى ٣/ ٤٥٠.

(٣) جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى ١/ ٦٩.

فالظاهر من هذا القول أن عرب الحيرة وسائر القبائل التى كانت تسكن قرى سواد العراق كانوا قد نفروا من جبروت الفرس وطغيانهم واشتدادهم فى جباية الجزية منهم، فرضوا بمصالحة المسلمين الذين بات واضحاً حسن معاملتهم للشعوب المغلوبة أو التى تقبل مصالحتهم، وفضلوهم على الفرس.

وعليه، يورد **الطبرى** أنـه لما هـزم **جالنوس** وأصحابه من الفرس ودخل **عبيد بن مسعود** «باروسما» نـزل هو وأصحابه قرية من قراها فاشتملت عليهم، فصنع **لأبى عبيد** طعام فأتى به، فلما رآه قال: ما أنا بالذى أكل هذا من دون المسلمين! فقالوا له: كُلْ فإنه ليس أحد من أصحابك إلا وهو يؤتى فى منزله بمثل هذا أو أفضل، فأكل، فلما رجع إليه أصحابه سألهم عن طعامهم فأخبروه بما جاءهم من الطعام[١] . فهذا خير شاهد على ترحيب عرب تلك المناطق الفارسية بإخوانهم من العرب المسلمين، صحيح أن الترحيب لم يكن ظاهرة عامة، إنما على الأقل مثل دليلاً على فهم هؤلاء العرب للفارق الواضح بين ما يسوسهم به الفرس وما جاءهم به المسلمون.

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٤٥٢.

معركـــة القادســـية

الدور السلمي:

كانت معركة القادسية من أهم وأقوى المعارك الحربية بين المسلمين والفرس، بعد أن تمهد معظم أرض السواد من العراق، وعمت فيه مصالحات المسلمين مع الأهلين، وأصبح أمرالمجابهة بين المسلمين والفرس واقعاً لا مفر منه، إذ المسلمون ما كان همهم قط حرب الشعوب المغلوبة[1] وحسب؛ بل كان جل ما يشغلهم هو حرب الغالبين من الحكومات والمتسلطين على تلك الشعوب، المانعين لهم من التحول إلى دين الإسلام، فوق استنزافهم لطاقاتهم وأموالهم ومعنوياتهم. ومع ذلك لم يعمد المسلمون مباشرة إلى إضرام نار الحرب وتأجيج أوارها؛ بل قصدوا إلى وسيلة البلاغ السلمى وإعمال العقل أولاً، فى محاولة لمنع وقوع الحرب والالتقاء بالسلاح.

غير أن هذه المحاولة السلمية لم تجد قبولا من الأكاسرة، بل طغوا وتجبروا وأصروا واستكبروا استكبارا، وتتابعت الرسل فترة من الزمن بين الفريقين، ولكن لم يفهم الأكاسرة لإعمال العقل معنى، ولا مالوا إلى جانب السلم. فإن **سعد بن أبى وقاص** قائد جند المسلمين الذى كان قد عسكر بجنده فى القادسية أرسل وفادة من عنده بقيادة **النعمان بن مقرن**

---

(١) أى التى غلب عليهم الفرس أو الروم.

إلى **يزدجرد كسرى فارس**، فدخلوا فى أحسن هيئة، وأخبروه بما وجههم له **سعد**، ودعوه إلى الإسلام وشهادة الحق أو أداء الجزية[1] .

وروى **الطبرى** خبر تلك الوفادة، فقال: إن **يزدجرد** لما وصلته رسل **سعد** قال لمن عنده من حاشيته أو ترجمانه: سلهم ما جاء بكم؟ وما دعاكم إلى غزونا والولوع ببلادنا؟ أمن أجل أنا أجممناكم وتشاغلنا عنكم اجترأتم علينا؟ فقال **النعمان** لأصحابه: إن شئتم أجبت عنكم، ومن شاء منكم آثرته، فقالوا: بل تكلم، وقالوا للملك: كلام هذا الرجل كلامنا، فتكلم**النعمان**، فقال: إن الله رحمنا فأرسل إلينا رسولاً يدلاعلى الخير ويأمرنا به، ويعرفنا الشر وينهانا عنه، ووعدنا على إجابته خير الدنيا والآخرة، فلم يدع إلى ذلك قبيلة إلاصاروا فرقتين، فرقة تقاربه وفرقة تباعده، ولا يدخل معه فى دينه إلا الخواص، فمكث بذلك ما شاء الله أن يمكث، ثم أمر أن ينبذ إلى من خالفه من العرب، وبدأ بهم وفعل، فدخلوا معه جميعاً على وجهين: مكره عليه فاغتبط، وطائع أتاه فازداد، فعرفنا جميعاً فضل ما جاء به على الذى كنا عليه من العداوة والضيق، ثم أمرنا أن نبدأ بمن يلينا من الأمم فندعوهم إلى الإنصاف، فنحن ندعوكم إلى ديننا، وهو دين حسن الحسن وقبح القبيح كله، فإن أبيتم فأمر من الشر هو أهون من آخر شر منه الجزاء، فإن أبيتم فالمناجزة، فإن أجبتم إلى ديننا خلفنا فيكم كتاب الله وأقمناكم عليه، على

---

(١) اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح) ت ٢٩٢هـ: تاريخ اليعقوبى ص ١٤٣، دار صادر بيروت (د.ت).

أن تحكموا بأحكامه، ونرجع عنكم وشأنكم وبلادكم، وإن اتقيتمونا بالجزاء (الجزية) قبلنا ومنعناكم، وإلاقاتلناكم[١] .

هذا هو الأسلوب الإسلامى الرفيع الذى تتضح فيه أمارات التواضع والثقة فى نصرالله عز وجل إعلاءً لهذا الدين الذى فاضت به قلوب المؤمنين، كما تتجلى فيه دعوة السلم أولاً وقبل كل شىء، والسيف هنا أيضاً هو آخرالخيارات. ولكن لننظر كيف كان رد **يزدجرد** فى مواجهة هذه الدعوة السلمية وذلك الأسلوب المقنع. لقد أخذته العزة بالإثم، وأعماه الجاه والسلطان، وفكريحول القوة، ونطق بلسان الكبر، فقال لوفد المسلمين: إنى لا أعلم فى الأرض أمة كانت أشقى ولا أقل عدداً ولا أسوأ ذات بين منكم، قد كنا نوكل بكم قرى الضواحى فيكفوناكم، لا تغزون فارس ولا تطمعون أن تقوموا لهم، فإن كان عددكم كثر فلا يغرنكم منا، وإن كان الجهد دعاكم فرضنا لكم قوتا إلى خصبكم وأكرمنا وجوهكم وكسوناكم وملكنا عليكم ملكا يرفق بكم[٢] .

وكأن **يزدجرد** هنا قد رجع به الخاطر إلى زمان مضى كان العرب فيه على حدود دولته وفى قرى سوادها يصبون إلى مثل ما يعد به الآن، فيمنحهم الأكاسرة ما وعدوهم به أو شيئاً منه فيسكنون. أما الآن، فقد كان حريا به – وهو الإمبراطور الحاكم المطالع لتواريخ الزمان ووقائعه من

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٤٩٩، ابن الأثير: الكامل فى التاريخ ٢/٤٥٧، النويرى (شهاب الدين أحمد ابن عبد الوهاب) ت٧٣٣هـ: نهاية الأرب فى فنون الأدب ١٩/١٩٢ تحقيق د/ محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة ١٩٧٥م.

(٢) تاريخ الطبرى ٤/٣٢٣، النويرى: نهاية الأرب ٩ـ/١٩٣.

حوله – أن يفهم أن العرب الذين هم بين يديه الآن ليسوا كالسابقين؛ فإن هولاء أتوه برسالة وفكر جديدين لايطلبون فى سبيلهما أيا من متاع الدنيا الذى كان قليله يكفى سابقيهم من بنى جلدتهم.

كما كان حرياً به أيضاً – أو كان من المفترض – أنه يعلم منهج الذين أتوه داعين للإسلام من خلال تاريخهم الحالى فى المنطقة والمناطق المجاورة، ويقف على ما كان بينهم وبين الروم نظرائه، فإن من أفنوا عشرات الآلاف من الروم وأسلم معهم كثير من قادتهم وجندهم ما جاءوه الآن يطلبون قوتا أو كساء إنما هم يطلبون منه ما طلبوه من الروم من قبل!.

ومن ثم، ومن قبيل مراعاة مقتضى الحال، كان رد **المغيرة بن زرارة النباشى الأسيدى**– أحد الرجال فى وفد المسلمين –، حيث وقف وقال: أيها الملك. إن هؤلاء رءوس العرب ووجوههم، وهم أشراف يستحون من الأشراف، وإنما يكرم الأشراف الأشراف، ويعظم حقوق الأشراف الأشراف، ويفخم الأشراف الأشراف، وليس كل ما أرسلوا به جمعوه لك، ولا كل ما تكلمت به أجابوك عليه، وقد أحسنوا ولا يحسن بمثلهم إلا ذلك، فجاوبنى لأكون الذى أبلغك ويشهدون على ذلك، إنك قد وصفتنا صفة لم تكن بها عالماً؛ فأما ما ذكرت من سوء الحال، فما كان أسوأ حالاً منا، وأما جوعنا فلم يكن يشبه الجوع؛ كنا نأكل الخنافس والجعلان والعقارب والحيات، فنرى ذلك طعامنا، وأما المنازل فإنما هى ظهر الأرض، ولا نلبس إلا ما غزلنا من أوبار الإبل وأشعار الغنم، ديننا أن يقتل بعضنا بعضا، ويغير بعضنا على بعض، وإن كان أحدنا ليدفن ابنته وهى حية كراهية أن تأكل من طعامنا،

فكانت حالنا قبل اليوم على ما ذكرت لك، فبعث الله إلينا رجلا معروفاً، نعرف نسبه، ونعرف وجهه ومولده، فأرضه خير رضنا، وحسبه خير أحسابنا، وبيته أعظم بيوتنا، وقبيلته خير قبائلنا، وهو بنفسه كان خيرنا بالحال التى كان فيها أصدقنا وأحلمنا، فدعانا إلى أمر فلم يجبه أحد قبل ترب كان له (يعنى **أبا بكر الصديق**) وكان الخليفة من بعده، فقال وقلنا، وصدق وكذبنا، وزاد ونقصنا، فلم يقل شيئاً إلا كان، فقذف الله فى قلوبنا التصديق له واتباعه، فصار فيما بيننا وبين رب العالمين، فما قال لنا فهو قول الله، وما أمرنا فهو أمر الله، فقال لنا: إن ربكم يقول: إنى أناالله وحدى لا شريك لى، كنت إذ لم يكن شىء، وكل شىء هالك إلا وجهى، وأنا خلقت كل شىء، وإلىّ يصير كل شىء، وإن رحمتى أدركتكم فبعثت إليكم هذا الرجل لأدلكم على السبيل التى بها أنجيكم بعد الموت من عذابى، ولأحلكم دارى، دار السلام، فنشهد عليه أنه جاء بالحق من عند الحق، وقال: من تابعكم على هذا فله مالكم وعليه ما عليكم، ومن أبى فاعرضوا عليه الجزية ثم امنعوه مما تمنعون منه أنفسكم، ومن أبى فقاتلوه، فأنا الحكم بينكم، فمن قتل منكم أدخله الله جنته، ومن بقى منكم أعقبه الله النصر على من ناوأه، فاختر إن شئت الجزية عن يد وأنت صاغر، وإن شئت فالسيف، أو تسلم فتنجى نفسك»[1] .

فهذا من **المغيرة بن زرارة** رد بليغ لا يخلو من تواضع، ودعوة إلى الدين الحق، أو السلم فى مقابل الجزية. وهو يذكرنا بما قاله **جعفر بن أبى**

(١) تاريخ الطبرى ٣/ ٥٠٠، نهاية الأرب ١٩/ ١٩٣.

طالب ﷺ لنجاشى الحبشة، فرآه واقعياً، واستصوبه على الرغم من محاولة وفد قريش آنذاك مع القساوسة فى بلاط الملك الحبشى واستمالتهم بثمين الهدايا التى حملوها معهم من مكة. ولكنها إرادة الله، حيث شاء الهداية لملك الحبشة وحرمها كسرى فارس، وصدق الله العظيم حيث يقول ﴿ ...مَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴾[1] .

ورغم كل هذا الذى احتواه رد المغيرة من البيان والصدق، فإن كسرى يتعاظمه ويلوح للمغيرة قائلا: أتستقبلنى بمثل هذا؟!، فيرد المغيرة بواقعية موقفه: ما استقبلت إلا من كلمنى، ولو كلمنى غيرك لم أستقبلك به، فيرد يزدجرد فى ثورة وهياج : لولا أن الرسل لا تقتل لقتلتكم، لا شىء عندى، ثم يشير لأصحابه من فارس قائلا: ائتونى بوقر (أى حمل) من تراب، فلما أتوه به قال: احملوه على أشرف هؤلاء، ثم سوقوه حتى يخرج من باب المدائن[2] .

وهكذا طاش صواب يزدجرد وفارقه عقله، فجاء رده هذا يحمل كل أشكال الطيش والصلف، وهو الذى كان عليه أن يقابل الحجة بالحجة والعقل بالعقل، ويعمل فكره - ولو شيئا - فى كل ما سمع، ثم يتخير أنجى الطريقين له ولأمته، لكنه التكبر والعمى عن الحق. ثم هو لا يكتفى بإلقاء التراب على رأس أشرف من فى الوفد؛ بل يقول لهم: ارجعوا إلى صاحبكم

---

(١) من الآية: ١٧ من سورة الكهف.

(٢) تاريخ اليعقوبى ٢/١٤٣، تاريخ الطبرى ٣/٥٠٠.

(أى **سعد بن أبى وقاص**) فأعلموه أنى مرسل إليكم **رستم**[1] حتى يدفيكم[2] ويد فيه فى خندق القادسية، وينكل به وبكم من بعد، ثم أورده بلادكم حتى أشغلكم فى أنفسكم بأشد مما نالكم من سابور. ثم قال للمسلمين: من أشرفكم؟ فسكت الوفد، فقال **عاصم بن عمرو** - وافتات ليأخذ التراب-: أنا أشرفهم، أنا سيد هؤلاء فَحَمِّلْنيه، فقال **يزدجرد**: أكذاك؟ قالوا: نعم، فحمل التراب على عنقه فخرج به من الإيوان والدار حتى أتى راحلته فحمله عليها، ثم انجذب فى السير فأتوا به سعداً، وسبقهم عاصم فمر بباب قديس فطواه، فقال: بشروا الأمير بالظفر، ظفرنا إن شاء الله، ثم مضى حتى جعل التراب فى الحجر، ثم رجع فدخل على سعد فأخبره الخبر فقال: أبشروا فقد والله أعطانا الله أقاليد ملكهم.

نظرة على معسكر المسلمين في القادسية:

لم توهن هذه الإهانات والتهديدات التى كانت من **يزدجرد** من عزائم المسلمين، ولم تفت فى عضدهم، بل جعلوا يزدادون فى كل يوم قوة، ويزداد عدوهم ضعفاً ووهناً، وذلك راجع إلى ثبات المبادىء التى يرتكز عليها المسلمون، فهى معتملة فى نفوسهم، تتحرك بها أبدانهم، ويكفينا فى هذا أن نطالع أوامرالحرب العليا الآتية من أمير المؤمنين **عمر** فى المدينة المنورة لنرى ما يُصدق على ذلك، فهو يبدأ بالقيادة العامة حين يوجه نداءه إلى **سعد بن أبى وقاص** قائد جند المسلمين: يا سعد سعد بنى

---

(١) كان رستم هذا أعظم قواد فارس آنذاك، وهو للمهام والصعاب بطل فارس الأول.

(٢) أى يجهز عليكم.

وهيب، لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله ﷺ ، وصاحب رسول الله، فإن الله عز وجل لا يمحو السيء بالسيء، ولكن يمحو السيء بالحسن، فإن الله ليس بينه وبين أحد نسب إلا طاعته، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء...[1] .

ثم يعمم أمير المؤمنين النصيحة للقائد والجند فيقول لسعد: إنى آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن التقوى أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيدة فى الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم، فإذا استوينا فى المعصية كان لهم الفضل علينا من القوة وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا، فاعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فلستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله، واسألوا الله العون على أنفسكم كما تسألونه العون على عدوكم، أسأل الله تعالى ذلك لنا ولكم.

ولا أجد تعليقاً على رسالة الخليفة إلى قادته وجنده إلا بمقارنتها بما كان أولاً من يزدجرد، مع فارق كبير فى الخبرة والحنكة السياسية، حيث الأكاسرة يحكمون ويحاربون ويتراسلون منذ قرون عديدة، أما دولة الإسلام فما تزال تجربتها فى أولها، ونشاطاتها السياسية والعسكرية فى بداياتها،

(١) تاريخ الطبرى ٤٨٣/٣، ابن كثير: (إسماعيل بن عمر) ت ٧٧٤هـ: البداية والنهاية ٣٥/٧، ،طبعة ثانية، بيروت ١٩٧٤م.

ومع ذلك الفارق نرى هذا النصح الخالص الذى يهتم ببناء داخلية وذات القائد والجند أولاً، وتعميق صلتهم بالله الذى يجب أن لا يعصى على أى حال، ألا إنها روح الإسلام ومبادئه التى لا تتجزأ ولا تنفصل بحسب الأحوال، بل هى أسس ثابتة تلازم المرء المؤمن فى كل حركات حياته.

قبل اللقاء: من خلال موقف **يزدجرد** يتأكد لنا أن الحرب أصبحت وشيكة الوقوع، بعد أن سدت كافة المنافذ إلى السلم، وأرسل **يزدجرد** فى استدعاء قائده الأعلى «**رستم**» الذى ما إن وصل إليه حتى سأله عما دار بينه وبين وفد المسلمين، وكيف رآهم، فقال **يزجرد**: ما كنت أرى أن فى العرب مثل رجال رأيتهم دخلوا علىّ، وما أنتم بأعقل منهم، ولا أحسن جواباً منهم، وأخبره بكلام متكلمهم، وقال: لقد صدقنى القوم، لقد وعد القوم أمراً ليدركنه أو ليموتن عيه، على أنى وجدت أفضلهم أحمقهم، لما ذكر الجزية أعطيته تراباً فحمله على رأسه فخرج به، ولو شاء اتقى بغيره، وأنا لا أعلم[1] .

حينئذ فطن رستم للأمر، واستشعر الخطر، وقال: أيها الملك، إنه لأعقلهم، وتطير إلى ذلك وأبصرها دون أصحابه. وخرج رستم من عند كسرى كئيباً غضباناً – وكان منجماً وكاهناً –[2] فقال: ما لابن الحجامة وتدبير الملك![3] ، ثم وجه رسلا فى أثر وفد المسلمين، وقال لثقته: إن أدركهم الرسول تلافينا أرضنا، وإن أعجزوه سلبكم الله أرضكم وأبناءكم.

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٥٠١، النويرى: نهاية الأرب ١٩/١٩٤.

(٢) تاريخ الطبرى٣/٥٠١.

(٣) أورد اليعقوبى فى تاريخه ٢/١٤٤ أن أم يزدجرد كانت حجامة.

فكانت هذه محاولة من رستم لإدراك ما فات يزدجرد، ومطاولة الحجة بالحجة، وإعمال العقل والسياسة، فلعلها تنجح فيما لم تفد فيه المكابرة والغطرسة. ولكن رسل رستم رجعت من الحيرة بفوات وفد المسلمين، فقال: ذهب القوم بأرضكم غير ذى شك، ذهب القوم بمفاتيح أرضنا!، فزاد ذلك الأمر فارس غيظاً.

وهنا رأى يزجرد أن يجرد رستم لقتال المسلمين، فأرسل فى طلبه فأتاه، فقال له: إنى أريد أن أوجهك فى هذا الوجه - أى حرب المسلمين - وإنما يعد للأمور على قدرها، وأنت رجل أهل فارس اليوم، وقد ترى ما جاء أهل فارس من أمر لم يأتهم مثله منذ ولى آل أردشير ثم قال لرستم: قد أحب أن أنظر فيما لديك لأعرف ما عندك، فصف لى العرب وفعلهم منذ نزلوا القادسية، وصف لى العجم وما يلقون منهم.

فأجابه رستم يصف له العرب: صفة ذئاب صادفت غرة من رعاء فأفسدت. فقال له: ليس كذلك، إنما سألتك رجاء أن تعرب صفتهم فأقويك لتعمل على قدر ذلك فلم تصب، فافهم عنى، إنما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عقاب أوفى على جبل يأوى إليه الطير بالليل، فتبيت فى سفحه فى أوكارها، فلما أصبحت تجلت الطير فأبصرته يرقبها، فإن شذ منها شىء اختطفته، فلما أبصرته الطير لم تنهض من مخافته، وجعلت كلما شذ منها طائر اختطفته، فلو نهضت نهضة واحدة ردته[1] ، وأشد شىء يكون فى

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٥٠٤.

ذلك أن تنجو كلها إلا واحداً، وإن اختلفت لم تنهض فرقة إلا هلكت، فهذا مثلهم ومثل الأعاجم، فاعمل على قدر ذلك.

غير أن **رستم** كان يرى التريث وتأجيل الحرب ما أمكنه ذلك، فقال للملك: دعنى، فإن العرب لا تزال تهاب العجم مالم تضرهم بى، ولعل الدولة أن تثبت بى فيكون الله قد كفى، ونكون قد أصبنا المكيدة ورأى الحرب، فإن الرأى فيها والمكيدة أنفع من بعض الظفر. فأبى **يزدجرد** على **رستم** رأيه هذا، وقال: أى شىء بقى؟! فقال **رستم** : إن الأناة فى الحرب خير من العجلة، وللأناة اليوم موضع، وقتال جيش بعد جيش أمثل من هزيمة بمرة وأشد على عدونا.

ولكن لم يقتنع **يزدجرد** برأى **رستم**، وأصر على إخراجه للقتال فخرج مكرها[1] ، حتى عسكر بجنده فى ساباط، وجعل يرسل الرسل إلى **يزدجرد** يطلب إعفاءه من تجريدة الحرب وتأمير غيره.

وفى أثناء إقامة **رستم** بعسكره فى ساباط بلغ خبرهم **سعد بن أبى وقاص** فأرسل إلى الخليفة **عمر** بذلك، فى الوقت الذى كثرت فيه استغاثة أهل السواد **بيزدجرد**، فازداد إلحاحا على **رستم** حتى يخرج للحرب، ويمتنع عن المحاجة والتعلل، ولكن **رستم** أعاد عليه قوله: أيها الملك، لقد اضطرنى تضييع الرأى إلى إعظام نفسى وتزكيتها، ولو أجد من ذلك بداً لم أتكلم به، فأنشدك الله فى نفسك وأهلك وملكك، دعنى أقم بعسكرى وأسرح **الجالنوس** (قائد آخر غيره) فإن تكن لنا فذلك، وإلافأنا على رجل وأبعث غيره، حتى إذا لم نجد بداً ولا حيلة صبرنا لهم، وقد وهناهم وحسرناهم (يعنى

---

(١) تاريخ اليعقوبى ص ٢/١٤٤، تاريخ الطبرى ٣/٥٠٤.

المسلمين) ونحن جامون. إلا أنه للمرة الأخيرة رفض رأى رستم، وأصر على الخروج والقتال دفعة واحدة، غير مكترث بكل ما نصحه به قائده الأعلى.

ويظهر من طول إعراض رستم عن الحرب، وطول محاجته للملك أنه (أى رستم) قد التفت إلى ما لم يلتفت إليه الملك، واستشعر مالم يستشعره، وتأمل فى دلالات الموقف، مستعيداً بذاكرته أخبار المسلمين فى حروب الروم فى الشام واستمالتهم لأكثر أهالى السواد بالعراق ومصالحتهم إياهم، ثم حملهم التراب والخروج به من إيوان الملك، حيث فسر ذلك رستم الكاهن بأنه فتح للمسلمين وأن ستكون لهم الغلبة.

وبناء على هذه الرؤية وجدنا رستم عندما هم للحرب وفصل بجنده من ساباط قاصداً معسكر المسلمين يكتب إلى أخيه: «من الإصبهد رستم إلى أخيه، أمابعد، فإنى رأيت المشترى فى هبوط، والزهرة فى علو، وهو آخر العهد منك، والسلام عليك الدهر الدائم»[1] ، ثم يوصيه قائلاً: «... فرموا حصونكم وأعدوا واستعدوا، فكأنكم بالعرب قد وردوا بلادكم، وقارعوكم عن أرضكم وأبنائكم، وقد كان من رأيى مدافعتهم ومطاولتهم، حتى تعود سعودهم نحوساً، فإن السمكة قد كدرت الماء، والنعائم قد حسنت، والزهرة قد حسنت، واعتدل الميزان، وذهب بهرام، ولا أرى هؤلاء القوم إلا سيظهرون علينا، ويستولون على ما يلينا وإن أشد ما رأيت أن الملك قال: «لتسيرن إليهم أو لأسيرن بنفسى»[2] .

---

(١) تاريخ اليعقوبى ٢/١٤٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٢/٣١٧.

وأيضاً فإنه فى أثناء خروج رستم من ساباط التقى عند قنطرتها **بجابان** (أحد قادة الفرس وملوكهم)، وكان منجماً مثله، فشكى إليه **جابان** قائلاً: ألا ترى ما أرى؟ فقال **رستم**: أما أنا فأقاد بخشاش وزمام (أى كما يجر البعير من أنفه) ولا أجد بداً من الانقياد. ثم أمر **رستم الجالنوس** بالتقدم إلى الحيرة التى أخضعها المسلمون، كما أمره أن يصيب له رجلاً من العرب، فخرج **الجالنوس** هو **والأزاذمرد** (قائد قرى السواد وواليها) فى سرية من مائة رجل، حتى انتهيا إلى القادسية، فأصابا رجلا من المسلمين دون قنطرتها فاختطفاه، فنفر المسلمون خلفهم فأعجزوهم إلا ما أصابوا فى أخرياتهم، فلما انتهيا به إلى **رستم** وهو «بكوثى»[1] قال **رستم** للرجل: ما جاء بكم؟ وماذا تطلبون؟ قال الرجل: جئنا نطلب موعود الله، قال: وما هو؟ قال: أرضكم وأبناءكم ودماءكم إن أبيتم أن تسلموا. قال **رستم**: فإن قتلتم قبل ذلك؟ قال: فى موعود الله أن من قتل منا قبل ذلك أدخله الجنة، وأنجز لمن بقى منا ما قلت لك، فنحن على يقين[2]. فقال **رستم**: قد وضعنا إذاً فى أيديكم، قال الرجل: ويحك **يارستم**! إن أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها، فلا يغزنك ما ترى حولك، فإنك لست تحاول الإنس، إنما تحاول القضاء والقدر! فاشتاط **رستم** غيظاً وأمر به فقتل. وخرج **رستم** من كوثى حتى نزل ببرس.

وهنا يمكن أن نلمح صورة لجند فارس الذين يعدون لحرب المسلمين.

---

(١) مكان عسكر به رستم.

(٢) تاريخ الطبرى ٥٠٨/٣، الكامل ٣١٧/٢.

نظرة على معسكر الفرس في القادسية:

كان كلام العربى الذى اختطف إلى رستم وقوله له: «إن أعمالكم وضعتكم فأسلمكم الله بها»، مقصوداً به ما كان يشيع فى حياة الفارسيين من شذوذ الإباحية والمجون، وتشعب الآراء وفساد الأخلاق[1] ، وتبعاً لهذا، فإن جند فارس الذين أتى بهم رستم ومن معه من القادة ونزلوا بهم «برس» - المحطة الأخيرة لهم قبل لقاء المسلمين ونشوب الحرب - قد غصبوا سكان هذه البلاد (الفارسية) أموالهم ووقعوا على نسائهم، وشربوا الخمور، حتى ضج علوج البلدان بالشكوى إلى رستم مما يلقون فى أموالهم وأبنائهم ونسائهم، حتى قام رستم فى الجند قائلا: يامعشر أهل فارس، والله لقد صدق العربى، والله ما أسلمنا إلا أعمالنا، والله للعرب فى هؤلاء وهم لهم ولنا حرب أحسن سيرة منكم. يقصد أن المسلمين حين نزلوا هذه البلاد ودانت لهم بالطاعة وصالحوا أهلها لم يكن منهم معهم شىء مما يقترفه الجند الفارسى. وهذا يؤكد على أنه فى مسيره من المدائن إلى القادسية قد طالع أخبار البلدان،وتحرى سيرة المسلمين فى البلاد التى فتحوها وأهلها، أو حتى فى البلدان التى لم يفتحوها بعد، فوقف على سلوك المسلمين المهذب النظيف الذى لايكون من أجنبى أبداً، ثم قاس عليه تلك الأفعال القذرة والآثام التى تدنس بها جنده مع أهالى البلدان الذين هم من المفروض أنهم جاءوا لنصرتهم وحمايتهم!.

---

(١) ينظر فى تفصيل هذا: تاريخ التمدن الإسلامى ١/٤٨.

واستمر رستم يوبخ الجند ويدعوهم إلى الامتثال وترك الرذائل، فقال: إن الله كان ينصركم على العدو ويمكن لكم فى البلاد بحسن السيرة، وكف الظلم، والوفاء بالعهود والإحسان، فأما إذا تحولتم عن ذلك إلى هذه الأعمال، فلا أرى الله إلا مغيراً ما بكم، وما أنا بآمن أن ينزع الله سلطانه منكم. ثم أتى ببعض من يُشكى منهم فضرب أعناقهم[1] قصاصا لما اقترفوه، وزجراً لبقية الجند حتى ينتهروا، فإن من لا دين له لا يردعه إلا السيف. وهنا يمكننا أن نقيس هذه الصورة التى كان عليها جند فارس على مثيلتها فى جند المسلمين لنرى الفوارق واضحة وبعيدة.

ثم دعا رستم أهل الحيرة الذين قبلوا مصالحة المسلمين، فتوعدهم وهمّ بهم، وقال: يا أعداء الله، فرحتم بدخول العرب علينا بلادنا، وكنتم عيونا لهم علينا، وقويتموهم بالأموال!. فاتقى أهل الحيرة رستم برجل منهم يحسن الكلام يدعى «**ابن بقيلة**»، فتقدم وقال: أما أنت وقولك: «إنا فرحنا بمجيئهم» فماذا فعلوا؟ وبأى ذلك من أمورهم نفرح! إنهم ليزعمون أنا عبيد لهم، وما هم على ديننا، وإنهم ليشهدون علينا أنا من أهل النار. وأما قولك: «إنا كنا عيونا لهم» فما الذى يحوجهم إلى أن نكون عيوناً لهم وقد هرب أصحابكم منهم، وخلوا لهم القرى! فليس يمنعهم أحد من وجه أرادوه، إن شاءوا أخذوا يميناً أو شمالاً. وأما قولك: «إنا قويناهم بالأموال» فإنا صانعناهم بالأموال عن أنفسنا، وإذ لم تمنعوننا مخافة أن نسبى وأن نخرب وتقتل مقاتلتنا – وقد عجز منهم من لقيهم منكم – فكنا نحن أعجز، ولعمرى لأنتم

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٥٠٨، ابن الأثير: الكامل ٢/٣١٨.

أحب إلينا منهم، وأحسن بلاءً،فامنعونا منهم نكن لكم أعواناً، فإنما نحن بمنزلة علوج السواد، عبيد من غلب. فقال رستم: صدقكم الرجل[1] .

وكان رستم قد قضى فى مسيره وتنقله مذ خرج من المدائن إلى أن قامت معركة القادسية أربعة أشهر، حيث كان يقصد أن يضجر المسلمين من طول الانتظار والمطاولة، وينتهى ما معهم من القوت، وتقل تعبئتهم، غير أن المسلمين جنداً وقادة وخليفة كانوا قد احتملوا أن يحدث هذا من الفرس وتوقعوه فاستمر الخليفة فى إرسال المدد والمعونات حتى يُقوى المسلمين على الصبر.

ثم أخذت السرايا من الجانبين تجوب أرجاء النواحى، وترجع بالأخبار، فلما أيقن رستم أن المسلمين لن تجدى معهم المطاولة، أتى على منقطع عسكر المسلمين ثم صعد حتى انتهى إلى القنطرة، فتأمل القوم (المسلمين) حتى أتى على شىء يشرف منه عيهم، ثم أخذ يحدث المسلمين، ويطلب منهم الانصراف عنه وكان مما قاله لهم: أنتم جيراننا، وقد كانت طائفة منكم فى سلطاننا (يقصد المناذرة)، فكنا نحسن جوارهم، ونكف الأذى عنهم، ونُوَليهم المرافق الكثيرة، نحفظهم فى أهل باديتهم، فنرعيهم مراعينا، ونميرهم من بلادنا، ولا نمنعهم من التجارة فى شىء من أرضنا، وقد كان لهم فى ذلك معاش[2] . فكانت هذه من رستممحاولة ظاهرة لإجراء الصلح مع المسلمين غير أنه لم يصرح به مع أنه يريده.

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٥٠٩.

(٢) تاريخ الطبرى ٣/٥١٧.

ولكن رد عليه من معسكر المسلمين «**زهرة بن الحوية**» قائد مقدمة المسلمين بقوله: صدقت، قد كان ما تذكر، وليس أمرنا أمر أولئك، ولا طلبتنا، إنا لم نأتكم لطلب الدنيا، إنما طلبتنا وهمتنا الآخرة، كنا كما ذكرت، يدين لكم من ورد عليكم منا، ويضرع إليكم يطلب ما فى أيديكم، ثم بعث الله تبارك وتعالى إلينا رسولاً فدعانا إلى ربه، فأجبناه، فقال لنبيه ﷺ : إنى قد سلطت هذه الطائفة على من لم يدن بدينى، فأنا منتقم بهم منهم، وأجعل لهم الغلبة ما داموا مقرين به، وهو دين الحق، لا يرغب عنه أحد إلا ذل، ولا يعتصم به أحد إلا عز، فقال له رستم : وماهو؟ قال: أما عموده الذى لا يصلح منه شيء إلا به فشهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله، والإقرار بما جاء من عند الله تعالى. قال: ما أحسن هذا! وأى شيء أيضاً؟ قال: وإخراج العباد من عبادة العباد إلى عبادة الله تعالى. قال: حسن، وأى شيء أيضاً؟ قال: والناس بنو ادم وحواء، إخوة لأب وأم، قال: ما أحسن هذا! ثم قال لزهرة: أرأيت لو أنى رضيت بهذا الأمر وأجبتكم إليه ومعى قومى كيف يكون أمركم! أترجعون؟ قال: أى والله، ثم لا نقرب بلادكم أبداً إلا فى تجارة أو حاجة، قال: صدقتنى والله، أما إن أهل فارس منذ ولى أردشير لم يدعو أحداً يخرج عن عمله من السفلة، كانوا يقولون إذا خرجوا من أعمالهم: تعدوا طورهم، وعادوا أشرافهم، فقال له زهـرة: نحن خير الناس للناس، فلا نستطيع أن نكون كما تقولون، نطيع الله فى السفلة ولا يضرنا من عصى الله فينا[1] .

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٥١٨.

وعندئذ انصرف رستم إلى عسكره، ودعا رجال فارس فذكرلهم ذلك فحموا منه وأنفوا، فقال لهم: أبعدكم الله وأسحقكم! أخزى الله أخرعنا وأجبننا. وهذا يؤيد ما ذهب إليه كثير من المؤرخين الذين رأوا أن رستم كان يميل إلى الإسلام، لكنه لا يملكه وحده، ثم يسوقون استشهاداً على ذلك ما رآه رستم مرتين فى نومه من أن سلطان الفرس ذاهب ودولة الإسلام آتية[1] .

ولعله بناء على ما رأى سعد بن أبى وقاص من سماع رستم لحديث زهرة وتأثره به ، فقد آثر أن يرسل إلى رستم – فى محاولة سلمية جديدة – من يشرح له موقف المسلمين ومقصودهم. أو ربما كان ذلك بناءً على طلب رستم نفسه؛ حيث أرسل إلى سعد: أن ابعث إلىّ من أصحابك رجلاً له فهم وعقل وعلم لأكلمه[2] . فأرسل سعد إلى المغيرة بن شعبة، وبسر بن أبى رهم، وعرفجة بن هرثمة، وحذيفة بن محصن، وربعى بن عامر، وقرفة بن زاهر التميمى، ومذعور بن عدى العجلى، والمضارب بن يزيد العجلى، ومعبد بن مرة العجلى، – وكان من دهاة العرب[3] ، فقال سعد: إنى مرسلكم إلى هؤلاء القوم، فما عندكم؟ فقالوا جميعاً: نتبع ما تأمرنا به، وننتهى إليه، فإذا جاء أمر لم يكن منك فيه شىء نظرناأمثل ما ينبغى وأنفعه للناس فكلمناهم به. فقال سعد: هذا فعل الحزمة، اذهبوا فتهيئوا. فقال ربعى بن عامر: إن الأعاجم لهم آراء وآداب، ومتى نأتهم جميعا يروا أنا قد

---

(١) ،(٢) تاريخ اليعقوبى ١٤٤/٢، الدينورى: (أبو حنيفة أحمد بن داود) ت٢٨٢هـ: الأخبار الطوال ص ١٢٠. تحقيق/ عبد المنعم عامر، بيروت (بدون).

(٣) تاريخ الطبرى ٥١٨/٣، وجمعهم اليعقوبى فى قوله: «وكانوا من دهاة العرب» ص١٤٤.

احتفلنا بهم! فلا تزدهم على رجل، يعنى ابعث رجلاً رجلاً، فمالئوه جميعاً على ذلك، فقال: فسرحونى، فسرحه، فخرج ربعى ليدخل على رستم عسكره، فاحتبسه الذين على القنطرة من الفرس، وأرسلوا إلى رستم لمجيئه، فاستشار عظماء قومه فقال: ما ترون؟ أنباهى أم نتهاون؟ فأجمع ملؤهم على التهاون فأظهروا الزبرج، وبسطوا البسط والنمارق ولم يتركوا شيئاً، ووضع لرستم سرير الذهب، وألبس زينته من الأنماط والوسائد المنسوجة بالذهب[1] .

وأقبل ربعى بن عامر يسيرعلى فرس له زباء[2] قصيرة، ومعه سيف مجلو، ورمح ملفوف بالجلد، وقوس ونبل، فلما غشى رستم وانتهى إليه وإلى أدنى البسط قيل له: انزل، فحمل فرسه على البساط حتى استوت عليه، ثم نزل وربطها بوسادتين، وأظهر الفرس التهاون، وعرف ربعى ما أرادوه .فقالوا: ضع سلاحك، فقال: إنى لم آتكم فأضع سلاحى بأمركم، بل أنتم دعوتمونى، فإن أبيتم أن آتيكم كما أريد رجعت، فأخبروا رستم، فقال: ائذنوا له، هل هو إلا رجل واحد!، فأقبل يتوكأ على رمحه وزجه نصل يقارب الخطو ويزج النمارق والبسط، فما ترك لهم نمرقة ولا بساطاً إلا أفسده وتركه منتهكاً مخرقاً، فلما دنا من رستم تعلق به الحرس، وجلس على الأرض وركز رمحه بالبسط، فقالوا: ما حملك على هذا؟ قال: إنا لا نستحب القعود على زينتكم هذه، فكلمه رستم فقال: ما جاء بكم؟ قال: الله

---

(١) تاريخ الطبرى ٥١٩/٣، النويرى: نهاية الأرب ١٩٦/١٩.

(٢) شعير طويل كثير.

ابتعثنا، والله جاء بنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنابدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمن قبل منا ذلك قبلناذلك منه ورجعنا عنه، وتركناه وأرضه يليها دوننا، ومن أبى قاتلناه أبداً، حتى نفضى إلى موعود الله. قال رستم وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى، والظفر لمن بقى. فقال رستم: قدسمعت مقالتكم، فهل لكم أن تؤخروا هذا الأمر حتى ننظر فيه وتنظروا قال: نعم، كم أحب إليكم؟ أيوماً أو يومين؟ قال: لا، بل حتى نكاتب أهل رأينا ورؤساء قومنا. وأراد مقاربته ومدافعته، فقال ربعى: إن مما سن لنا رسول الله ﷺ وعمل به أئمتنا ألا نمكن الأعداء من آذاننا، ولا نؤجلهم عند اللقاء أكثر من ثلاث، فنحن مترددون عنكم ثلاثاً، فانظر فى أمرك وأمرهم، واختر واحدة من ثلاث بعد الأجل، اختر الإسلام وندعك وأرضك، أو الجزاء فنقبل ونكف عنك، وإن كنت عن نُصرتنا غنيا تركناك منه، وإن كنت إليه محتاجاً منعناك، أو المنابذة فى اليوم الرابع، ولسنا نبدؤك فيما بيننا وبين اليوم الرابع إلا أن تبدأنا، أنا كفيل لك بذلك على أصحابى وعلى جميع من ترى.

هذه الثقة التى بدت من كلام ربعى بن عامر جعلت رستم يسأله: أسيدهم أنت؟ قال ربعى: لا، ولكن المسلمين كالجسد الواحد بعضهم من بعض، يجير أدناهم على أعلاهم. فخلص رستم برؤساء أهل فارس، فقال: ما ترون؟هل رأيتم كلاما قط أوضح ولا أعز من كلام هذا الرجل؟ قالوا: معاذ الله لك أن تميل إلى شىء من هذا وتدع دينك لهذا الكلب! أما ترى

إلى ثيابه؟ فقال: ويحكم، لا تنظروا إلى الثياب، ولكن انظروا إلى الرأى والكلام والسيرة، إن العرب تستخف باللباس والمأكل ويصونون الأحساب، ليسوا مثلكم فى اللباس، ولا يرون فيه ما ترون[1] .

فالظاهر هنا أن رستم أخذ يميل إلى التعقل ومعالجة الموقف بروية، غير أن جماعة رأيه لما رأوا فيه ذلك أنكروا عليه، ثم عمدوا إلى التقليل من شأن المسلمين، متخذين من هيئتهم ولباسهم وسيلة لتحقيرهم أمام قائدهم العام الذى كان يفهم طباع العرب وزهدهم فى متاع الدنيا. ثم أخذوا ينهجون أسلوباً حسياً مباشراً، إذ انقلبوا من أمام قائدهم إلى ربعى بن عامر يتناولون سلاحه ويزهدونه فيه. فقال لهم ربعى: هل لكم أن ترونى فأريكم؟ فأخرج سيفه من خرقه كأنه شعلة نار، فقال القوم: اغمده، فغمده، ثم رموا ترساً ورمى جحفة – ترساً –، فخرق ترسهم وسلمت جحفته. فقال: يا أهل فارس، إنكم عظمتم الطعام واللباس والشراب وإناصغرناهن، ثم رجع إلى أن ينظروا الأجل.

فلما كان من الغد بعث الفرس إلى سعد أن ابعث إلينا ذلك الرجل، فبعث إليهم حذيفة بن محصن، فأقبل فى نحو ما كان ربعى أقبل به، حتى إذا كان على أدنى البساط قيل له: انزل، قال: ذلك لو جئتكم فى حاجتى، فقولوا لملككم: أله حاجة أم لى؟ فإن قال: لى، فقد كذب ورجعت وتركتكم، وإن قال: له لم آتكم إلاعلى ما أحب، فقال رستم: دعوه، فجاء حتى وقف عليه ورستم على سريره فقال: انزل، قال: لا أفعل، فلما أبى سأله: ما بالك

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٥٢١ «بتصرف»، نهاية الأرب ١٩/١٩٧.

جئت ولم يجيء صاحبنا بالأمس؟ قال: إن أميرنايحب أن يعدل بيننا في الشدة والرخاء، فهذه نوبتي. قال: ما جاء بكم؟ قال: إن الله عز وجل منّ علينا بدينه، وأرانا آياته، حتى عرفناه وكنا له منكرين، ثم أمرنابدعاء الناس إلى واحدة من ثلاث، فأيها أجابوا إليها قبلناها: الإسلام وننصرف عنكم، أو الجزاء ونمنعكم إن احتجتم إلى ذلك، أو المنابذة. فقال رستم: أو الموادعة إلى يوم ما؟ قال: نعم، ثلاثاً من أمس. فلما لم يجد عنده إلا ذلك رده. وأقبل رستم على أصحابه فقال: ويحكم! ألا ترون إلى ما أرى!، جاءنا الأول بالأمس فغلبنا على أرضنا وحقر ما نعظم وأقام فرسه على زبرجنا وربطه به، فهو في يمن الطائر، ذهب بأرضنا وما فيها إليهم مع فضل عقله. وجاءنا هذا اليوم فوقف عينا فهو في يمن الطائر، يقوم على أرضنا دوننا. وظل رستم يحاور قومه حتى أغضبهم وأغضبوه.

فلما كان من الغد أرسل رستم إلى سعد: أن ابعثوا إلينارجلاً، فبعث إليهم المغيرة بن شعبة، حتى إذا عبر القنطرة إلى أهل فارس حبسوه واستأذنوا رستم في إجازته، ولم يغيروا شيئا من شارتهم تقوية لتهاونهم، فأقبل المغيرة يمشي حتى جلس مع رستم على سريره، فوثبوا عليه فحركوه وأنزلوه، وضربوه ضرباً خفيفاً في أثناء ذلك فقال: كانت تبلغنا عنكم الأحلام، ولا أرى قوما أسفه منكم! إنا معشرالعرب سواء لا يستعبد بعضنا بعضاً إلا أن يكون محارباً لصاحبه، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى، وكان أحسن من الذى صنعتم أن تخبروني أن بعضكم أرباب بعض، وأن هذا الأمر لا يستقيم فيكم فلا نصنعه، ولم آتكم، ولكن لما دعوتموني اليوم علمت أن أمركم مضمحل وأنكم مغلوبون، وأن ملكا لا

يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول. فقالت السفلة: صدق والله العربى، وقالت الدهاقين: والله لقد رمى بكلام لا يزال عبيدنا ينزعون إليه، قاتل الله أولينا، ما كان أحمقهم حين كانوا يصغرون أمر هذه الأمة! فمازح رستم المغيرة حتى يمحو من نفسه آثار ما كان معه، ثم قال له: ياعربى، إن الحاشية قد تصنع مالا يوافق الملك فيتراخى عنها مخافة أن يكرها عما ينبغى من ذلك، فالأمر على ما تحب من الوفاء وقبول الحق، ما هذه المغازل التى معك؟ قال: ما ضر الجمرة ألا تكون طويلة! ثم راماهم وقال: ما بال سيفك رثا! قال: رث الكسوة حديد المضربة، ثم عاطاه سيفه، ثم قال له رستم: تكلم أم أتكلم؟ فقال المغيرة: أنت الذى بعثت إلينا فتكلم، فأقام الترجمان بينهما، وتكلم رستم، فحمد قومه وعظم أمرهم وطوله، وقال: لم نزل متمكنين فى البلاد ظاهرين على الأعداء، أشرافاً فى الأمم، فليس لأحد من الملوك مثل عزنا وشرفنا وسلطاننا، ننصر على الناس ولا ينصرون علينا إلا اليوم واليومين، أو الشهروالشهرين للذنوب، فإذا انتقم الله فرضى رد إلينا عزنا، وجمعنا لعدونا شر يوم هو آت عليهم، ثم إنه لم يكن فى الناس أمة أصغر عندنا أمراً منكم، كنتم أهل قشف[1] ومعيشة سيئة، لا نراكم شيئاً ولا نعدكم، وكنتم إذا قحطت أرضكم وأصابتكم السنة (الجدب) استغثتم بناحية أرضنا فنأمر لكم بالشىء من التمر والشعير ثم نردكم، وقد علمت أنه لم يحملكم على ما صنعتم إلا ما أصابكم من الجهد فى بلادكم، فأناآمر لأميركم بكسوة وبغل وألف درهم، وآمر لكل

---

(١) القشف: ضيق العيش.

رجل منكم بوقر تمر وثوبين، وتنصرفون عنا، فإنى لست أشتهى أن أقتلكم ولاآسركم[١] .

فتكلم المغيرة بن شعبة، فحمد الله وأثنى عليه، وقال: إن الله خالق كل شيء ورازقه، فمن صنع شيئاً فإنما هو الذى يصنعه له، وأماالذى ذكرت به نفسك وأهل بلادك من الظهور على الأعداء والتمكن فى البلاد وعظم السلطان فى الدنيا، فنحن نعرفه ولسنا ننكره، فالله صنعه بكم، ووضعه فيكم، وهو له دونكم، وأما الذى ذكرت فينا من سوء الحال، وضيق المعيشة واختلاف القلوب، فنحن نعرفه ولسنا ننكره، والله ابتلانا بذلك وصيرنا إليه والدنيا دول، ولم يزل أهل شدائدها يتوقعون الرخاء حتى يصيروا إليه، ولم يزل أهل رخائها يتوقعون الشدائد حتى تنزل بهم، ويصيروا إليها، ولو كنتم فيما أتاكم الله ذوى شكر كان شكركم يقصر عما أوتيتم، وأسلمكم ضعف الشكر إلى تغير الحال، ولو كنافيماابتلينا به أهل كفر كان عظيم ماتتابع علينا مستجلباً من الله رحمة يرفه بها عنا، ولكن الشأن غير ماتذهبون إليه أو كنتم تعرفوننا به، إن الله تبارك وتعالى بعث فينا رسولا ....إلخ ماقاله ربعى بن عامرمن قبل، إلى أن قال: وإن احتجت إلينا أن نمنعك فكن لناعبداً تؤدى الجزية عن يد وأنت صاغر، وإلافالسيف إن أبيت! فنخر رستم نخرة واشتاط غضباً، ثم حلف بالشمس لايرتفع لكم الصبح غداً حتى أقتلكم أجمعين[٢] .

---

(١) الدينورى: الأخباراطوال ص ١٢٠، والنص للطبرى ٣/٥٢٣، ابنكثير: البداية والنهاية ٧/٤٠.

(٢) الماوردى: الأخبار الطوال ص١٢١، تاريخ الطبرى ٣/٥٢٣.

وانصرف المغيرة من عند رستم راجعاً،فخلص رستم بأهل فارس يقول لهم: أين هؤلاء منكم؟ ما بعد هذا! ألم يأتكم الأولان فحسراكم واستحرجاكم ثم جاءكم هذا فلم يختلفوا، وسلكوا طريقاً واحداً، ولزموا أمراً واحداً، هولاء والله الرجال صادقين كانوا أم كاذبين! والله لئن كان بلغ من إربهم وصونهم لسرهم ألا يختلفوا، فما قوم أبلغ فيما أرادوا منهم، لئن كانوا صادقين ما يقوم لهم شيء! فلجّ أهل فارس وتجلدوا. وكان رستم قد أرسل رجلا خلف المغيرة، وقال له: إذا قطع القنطرة ووصل إلى أصحابه فناد: إن الملك كان منجماً قد حسب لك ونظر فى أمرك، فقال: إنك غداً تفقأ عينك، ففعل رسول رستم. فقال المغيرة: بشرتنى بخير وأجر، ولولا أن أجاهد بعد اليوم أشباهكم من المشركين لتمنيت أن الأخرى ذهبت أيضاً. ورأى الفرس يضحكون من مقالته ويتعجبون من بصيرته، فرجع الرسول إلى رستم بذلك، فسمع منه ثم التفت إلى أصحابه قائلاً: أطيعونى يا أهل فارس، وإنى لأرى لله فيكم نقمة لا تستطيعون ردها عن أنفسكم[1] .

فإذا ما تأملنا الحوار الذى دار فى كل هذه المراسلات بين المسلمين والفرس لرأينا أنه إذا كان هؤلاء قد طاولوا المسلمين وما دوهم كل تلك الفترة بقصد إضعاف مركزهم واضطرارهم إلى الإنسحاب، فإن المسلمين فى هذه السلسلة من المراسلات قد طاولوا الفرس ومادوهم أيضاً، ولكن ليست مطاولة زمنية؛ إنما هى مطاولة عقلية وفكرية، قلبوا لهم فيها الأمورعلى كل وجوهها، وأتاحوا لهم كل فرص التروى والتريث واتخاذ

(١) تاريخ الطبرى ٣/٥٢٤، نهاية الأرب ١٩/٢٠٠.

القرار الحكيم الذى يمنع من وقوع الحرب، وعليه، فإن هنالك بعض الاستنتاجات المهمة التى نلحظها من خلال هذه المراسلات:

أولاً: هذا الصبر من المسلمين فى مفاوضة الفرس يعنى أن المسلمين لم يعتمدوا فى سبيل غايتهم على السيف فى المقام الأول، بل هو آخر ما تؤول إليه النتائج.

ثانياً: أن صيحة الحق التى أطلقها رسل المسلمين فى إيوانات ومعسكرات فارس كانت شجاعة ومدوية، تثبت أن المسلمين قد ضربوا أروع الأمثلة فى اليقين والشجاعة والثبات، وأنهم فى سبيل هدفهم المنشود قد رفضوا الدنيا التى عرضت عليهم على لسان **يزدجرد** ملك أكبر دولة فى العالم آنذاك[1] ، وصاحب أكبر ثروة أيضاً، ثم عرضت عليهم على لسان رستم قائد الفرس الأعظم فى مكان الإعداد للمعركة، وفى قلب مقر قيادته، بحيث كان يمكن لكل هذه العوامل أن تفت فى عضد المسلمين، وترهب نفوسهم، فيقبلون الغنم مع السلامة، ولكنهم رفضوا كل هذا لأنهم لم يخرجوا من أجله، واستمسكوا بالذى خرجوا له، وهو النصر أو الشهادة فى سبيل تبليغ دعوة الحق.

ثالثاً: على الرغم من وضوح مقالة المسلمين وواقعيتها فإن الفرس استكبروا وطغوا وأعماهم السلطان والقوة عن أن يدققوا الفهم فيما وجه إليهم من كلام المسلمين، وحتى قائدهم الأعظم الذى وقف

---

(١) محمد فتح الله الزيادى: انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه ص ١٥٤.

على الكثير من معانى ماسمع وحاول إقناعهم بما اقتنع هو بـه، لم يجد معهم ما أراده، ولااستمعوا لكلامه. وبات صوت القوة، وتاريخ غلبتهم السابق، والتباهى بزخرف الدنيا هو الشىء الوحيد الذى يسمعونه، والحق الأكيد الذى يعرفونه.

رابعاً: قاس الفرس تاريخ العرب على تاريخهم أنفسهم فى الجاه والعز والسلطان، وقاسوا قوتهم الحربية بقوى العصر – فارسَية كانت أم بيزنطية – فجاءت فوارق كل الأقيسة فى صالح الفرس، دون أن يفطنوا (حتى من خلال كلام الرسل التى كانت تتبدل إليهم) إلى أن العرب الآن عقيدة وروحاً وقوة ليسوا هم العرب السابقين؛ بل هم الآن بالإسلام أمة جديدة بروح وعقل جديدين.

خامساً: وحتى فى أثناء فترة المراسلات بين الطرفين، وخلال الأيام الثلاث التى أمهلها المسلمون الفرس، كثيراً ما كانت خيول وطلائع الفرس تختلف إلى معسكر المسلمين، وتقوم بمناوشة جندهم، لولا أن تمسك المسلمون بالمهلة وتجنبوا المصادمات ماداموا على عهدهم حتى يوفوا المدة لعدوهم.

اللقـــاء العســكري:

وهكذا أصبح أمرالحرب واقعاً، وبات من الواضح أنها الفاصلة؛ حيث لم يَجِدْ النصح، ولم يسمع نداء العقل، فكانت حرباً بين الإيمان والشرك، والحق والباطل، يدخلها رستم وهو يقول: غدا ندقهم دقاً، فيقول رجل من جنده: إن شاء الله، فيقول رستم: وإن لم يشأ! ويدخلها المسلمون وهم يكبرون ويقرأون بسورة الجهاد.

ويدخل جند فارس المعركة وهم متسلسلون (أى شد بعضهم إلى بعض فى السلاسل) حتى لا يفروا من الوغى، على الرغم من كثرتهم، فى حين تقبل قلة المسلمين على القتال وهم واثقون بأن النصر لا يكون إلا من عند الله العزيز الحكيم، وبأن النصرمع الصبر. ويمكننا هنا أن نقارن بين صورتين، الأولى لجند فارس الذين ربطوا أنفسهم بالسلاسل خشية الفرار، والثانية صورة جندى مسلم واحد لم يكن مشاركاً فى المعركة من بدايتها، هو أبو محجن الثقفى، حيث كان سعد بن أبى وقاص قد حبسه وقيده فى الحديد، فى شىء من الشعر قاله مازحاً. فلما كان يوم أغواث وأحس باشتداد الحال علىّ المسلمين أشار على «سلمى» امرأة سعد قائلاً لها: هل لك إلى خير؟ قالت: وما ذاك؟ قال: تخلين عنى وتعيريننى البلقاء (فرس سعد)، فلله على إن أسلمنى الله أن أرجع إليك حتى أضع رجلى فى قيدى، فقالت: وما أنا وذاك؟ فرجع يرسف فى قيوده ويقول:

كفي حزنا أن ترتدي الخيل بالقنا	وأترك مشدودا علي وثاقيا
وقد كنت ذامال كثير وإخوة	فقد تركوني واحدا لا أخاليا
ولله عهد لا أخيس بعهده	لئن فرجت الا أزور الحوانيا

فقالت سلمى لما سمعت ذلك إنى استخرت الله ورضيت بعهدك، فأطلقته، فركب الفرس ودب عليها حتى إذا كان بحيال ميمنة المسلمين كبر، ثم حمل على ميسرة الفرس يلعب برمحه وسلاحه بين الصفين، ثم رجع من خلف المسلمين إلى الميسرة فكبر وحمل على ميمنة الفرس يلعب بين الصفين برمحه وسلاحه، وكان يقصف الناس ليلتئذ قصفاً منكراً،

وتعجب الناس منه وهم لا يعرفونه، حتى قال بعضهم البعض: أوائل أصحاب هاشم، أوهاشم نفسه، وجعل سعد يقول وهو مشرف على الناس مكب من فوق القصر: والله لولا محبس أبى محجن لقلت: هذا أبو محجن وهذه البلقاء!، وقال بعضهم: لولا أن الملائكة لا تباشر القتال لقلنا: ملك يثبتنا. وبعد انتصاف الليل عاد أبو محجن فدخل من حيث خرج، ووضع عن نفسه وعن دابته، وأعاد رجليه فى قيده، ثم قال:

لقد علمت ثقيف غير فخر ... بأنا نحن أكرمهم سيوفا
وأكثرهم دروعا سابغات ... وأصبرهم إذا كرهوا الوقوفا
وأناوفدهم في كل يوم ... فإن عميوا فسل بهمواعريفا
وليلة قادس لم يشعروا بي ... ولم أشعر بمخرجي الزحوفا
فإن أحبس فذلكم بلائي ... وإن أترك أذيقهم الحتوفا

فسألته سلمى عن سبب حبسه فأخبرها، فلما أصبحت أخبرت بخبره سعداً، فدعا به فأطلقه، وقال: اذهب، فما أنا مؤاخذك بشيء تقوله حتى تفعله. قال: لا جرم، والله لا أجيب لسانى إلى صفة قبيح أبداً[1] .

---

(١) كان سبب حبس سعد بن أبى وقاص لأبى محجن أنه كان فى جاهليته يحب الشراب، فلما أسلم رجع عن كل قبيح، إلا أن الشعر قد دب على لسانه فقال أبياتا حبس فيها، وهى:

إذا مت فادفنى إلى أصل كرمة ... تروى عظامى بعد موتى عروقها
ولا تدفننى فى الفلاة فإننى ... أخاف إذا مامت ألا أذوقها
وتروى بخمر الحص لحدى فإننى ... أسير لها من بعد ما قد أسوقها

(تاريخ الطبرى ٥٤٩/٣ «بتصرف»، النويرى: نهاية الأرب ١٩/ ٢٣١٠).

فتلك لعمرى صورة بديعة ورائعة لمقاتل من المسلمين، أودع فى الحبس، وقيد فى حديد يحميه من حومة الوغى (فى مقابل جند فارس الذين ربطوا بالسلاسل لئلا يفروا من الميدان) ولكنه يضيق حزناً لعدم إشراكه فى قتال الأعداء وحرمانه شرف الجهاد، فيتحايل حتى يخرج ويمزق صفوف الأعداء، ثم تقتضيه الأمانة أن يعود إلى محبسه وفاء للعهد الذى قطعه على نفسه.

فمن خلال هذه الصورة والآلاف من أشباهها من صور البطولة والفداء تتجلى أسباب انتصار المسلمين – على قلتهم – ودحر أعدائهم وهم كثرة وفيرة، فقد افتقدت فى نفوس الأعداء مثل هذه الدوافع، فما يحاربون إلا حفاظاً على عروش أباطرتهم وحماية سلطانهم، ومن ثم فهم لا يثبتون فى الميدان إلا إذا ربطوا بالسلاسل حتى لا يستطيعون فراراً!.

وهكذا انتهت معركة القادسية التى لم تحسم إلا فى يومها الرابع، وهزم الله فارس ونصر المسلمين، وقتل رستم وعشرات الآلاف من جنده. وفر الباقون يشربون الخمر، ويطعمون الطعام، ويتعجبون من رميهم الذى لم يعمل فى المسلمين، ثم عولواعلى احتمال الذهب والفضة والديباج والحرير والسلاح وثياب كسرى وبناته، وخلوا ما سوى ذلك[1]!.

وكتب سعد بن أبى وقاص إلى الخليفة عمر يبشره بالفتح والنصر، ويخبره بعدة من قتلوا ومن قتل من المسلمين. فكتب إليه الخليفة أن يلزم

---

(١) تاريخ الطبرى: ٥٧٩/٣، ابن الأثير: الكامل ٣٣٧/٢.

مكانه ولا يتعقب فلول المهزومين، وأن يتخذ للمسلمين دارهجرة ومنزل جهاد، فكان اختطاط الكوفة وسكنى الناس بها[1] .

وبعد أن أقام سعد بجنده شهرين أتاه كتاب الخليفة بالمسير إلى المدائن عاصمة فارس، فسار حتى افتتح «برس» ثم المدائن الغربية[2] ومنها عبروا إلى المدائن الشرقية، حتى أحاطوا بالقصر الأبيض، وكان به من بقى من الفرس، فدعاهم سعد إلى قبول الجزية والدخول فى ذمة المسلمين فقبلوا، وتراجع إليهم أهل المدائن على مثل عهدهم. واتخذ سعد إيوان كسرى مُصلًّى[3] ، وتلا عندما دخله قول الله تعالى: ﴿ **كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ * وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ * كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ *** ﴾[4] ثم صلى صلاة الفتح، وأقام أول جمعة أقيمت بالمدائن فى صفر سنة ست عشرة للهجرة[5] .

وبسقوط المدائن فر من رجال الفرس وقادتهم من استطاع، وأخذت كل مدينة مما حولها تستعصم بنفسها وتحاول الوقوف فى وجه المسلمين. ومن ثم أصبح من اللازم تعقب هؤلاء الفارين، والقضاء على مراكز المقاومة التى تمثلت فى سائر المدن والقرى، فخرجت سرايا المسلمين

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٥٧٩، ابن الأثير: الكامل ٢/٣٣٧.

(٢) كانت المدائن عاصمة فارس عبارة عن مدينة كبيرة يقسمها نهر دجلة إلى شرقية وغربية، وكان فى القطاع الغربى منها قصور كسرى وأسرة الحكم وبيوت السادة.

(٣) النويرى: نهاية الأرب ١٩/٢٢٦.

(٤) الآيات: ٢٥ – ٢٨ من سورة الدخان.

(٥) نهاية الأرب ١٩/٢٢٦.

وبعوثهم إلى جلولاء وحلوان وتكريت والموصل وقرقيسيا والأهواز وتستر، وغيرها حتى تم إخضاع كل مراكز المقاومة، ودخل فى الإسلام من أهل فارس من هدى، والتزم من عداهم بالجزية والدخول فى ذمة المسلمين، على ما كان المسلمون يصالحونهم عليه، وأذن الخليفة لسعد وجنده بالانسياح فى أراضى فارس، حتى لا تتاح الفرصة لأهلها بالتجمع من جديد، شريطة أن يلتزم المسلمون بعهودهم، وألا يغدروا بأهل الذمة أو يظلموهم.

الفصل الثاني

من الملامح الحضارية
في فتوحات الشام وفلسطين

تمهيـــــــد :

إذا كانت الإمبراطورية الفارسية قد سقطت سريعاً أمام شجاعة جند الفتح الإسلامى واستبسالهم، وإصرارالقيادة الإسلامية العليا عى نشر رسالة التوحيد مهما كلفها ذلك من شىء. فإنه فى الجبهة الأخرى - بين المسلمين والروم - سيطول أمد المواجهة العسكرية، وتحول صعوبات كثيرة دون أن يحقق المسلمون ما حققوه فى فارس. من هذه الصعوبات:

١ - اتساع أملاك الروم وترامى الأقاليم الخاضعة لهم، مما يستدعى تعدد الجيوش الفاتحة، واتساع مدى نشاطاتها فى هذه الأقاليم، وذلك بخلاف ما كان فى فارس؛ حيث كانت جبهة واحدة متقاربة فى حدودها مع حدود الدولة الإسلامية فى المدينة المنورة.

٢ - بُعد العاصمة البيزنطية «القسطنطينية» عن ميادين القتال المباشرة، مما استلزم أن يكون الوصول إليها بعد تمهيد كل هذه المناطق والمسافات، والمحافظة على الروح والقوة القتالية لجند المسلمين. على عكس ما كان فى فارس حيث كانت عاصمتهم «المدائن» قريبة من ميدان القتال المباشر، مما ساعد فى سقوطها، ومن ثم سقوط الإمبراطورية بكاملها.

٣ - اقتضت سنة العمل السياسى والحربى ألا ينشغل المسلمون بجبهتين نشيطتين فى وقت واحد، فكان لزاماً أن تنتهى إحدى الإمبراطوريتين مبكراً، حتى يفرغ المسلمون للثانية. ولو تصورنا بقاء المدائن وحكومة فارس كما بقيت القسطنطينية وحكومة البيزنطيين

فلربما شهدت الساحة السياسية والعسكرية غير ما سجله التاريخ من أحداث، فهى إرادة الله على كل حال.

ولابد لنا هنا ونحن نستجلى الملامح الحضارية فى فتوحات بلاد الروم أن نتبين بعدين مهمين يكشفان عن طبيعة البلاد والسكان، ومدى العلاقة بين السكان والحكام،

البعـــد الأول: سياسة الروم فى أهل الشام.

والبعد الثانى: سياسة الفرس فى أهل الشام، أثناء فترة الغزو الفارسى. ومن ثم أفردت لهما المبحثين الآتيين، كيما نتعرف على طبيعة هذه الشعوب وأحوالهم فى ظل حكم كلتا الإمبراطوريتين.

المبحث الأول
سياسة الروم في أهل الشام

تداولت على إقليم الشام منذ القدم أمم ومدنيات مختلفة، كالفينيقيين والأموريين والكنعانيين والفراعنة واليونان والرومان وعرب غسان، وأخيرا كان إقليماً بيزنطياً ثقافته الرومية وديانته النصرانية. وكان يسكن بلاد الشام إبان الفتح الإسلامى: السوريون (أهل البلاد)، والأرمن، واليهود، وبعض من الروم، وبعض قبائل عربية من أشهرها: غسان، ولخم، وجذام، وكلب، وقضاعة، وطائفة من تغلب، وهولاء العرب كانوا فى القسم الجنوبى من الشام أكثر منهم فى القسم الشمالى؛ بحكم الجوار لبلادهم، وكان هؤلاء العرب يعدون أنفسهم شاميين لا تربطهم بعرب الحجاز إلا علاقات التجارة، ولذا وقفوا بجانب الروم فى محاربة المسلمين عند الفتح[1] .

وكانت سياسة الروم تقوم على اتخاذ البحار والأراضى التى لا يمكن اجتيازها كالجبال مثلاً، حدوداً طبيعية تقف عندها أطراف فتوحاتهم، أما الحدود التى لاتتمتع بهذه الحصانة الطبيعية فقد دأبوا على حمايتها بعقد أواصرالصداقة والتحالف مع الجيران المطلين عليها. وقد وقفت الصحراء الشامية بمعزل عن تطبيق السياسة الرومانية الخاصة بالحدود الطبيعية، مما حمل روما على اتباع نمط خاص فى هذه الصحراء جاء فذاً وفريداً فى تلك البقعة المطلة على عدوها اللدود، إذ اتجهت روما إلى إقامة سلسلة من الحصون على طرف الصحراء المطلة على الفرات للمحافظة على الحدود،

---

(١) أحمد أمين: فجر الإسلام. ص ٨٤، ،الطبعة الثانية عشر، القاهرة ١٩٧٨م.

مـع الاسـتعانة أيضـاً بالقبائل الضارية فى هذه الصحراء فى أعمال الحراسة والدفاع.

ومنذ القرن الرابع الميلادى تولت الإمبراطورية البيزنطية أيضاً تنظيم هذه البقعة من أراضيها التى تفصلها عن منافستها دولة الفرس، وفضلت اتباع سياسة روما الخاصة بعدم الاندفاع وراء مشاريع حربية لا طائل من ورائها فيما وراء الفرات، فدعمت سلسلة الحصون فى الصحراء الشامية، ثم نظمت ولاياتها الشرقية بأن جعلت سورية وفلسطين ولاية واحدة عرفت باسم «الولاية الشرقية»[1] .

وكرس البيزنطيون اعتمادهم واهتمامهم فى مناطق جنوب الشام على القبائل العربية النازحة إلى هناك، والتى كانت تطردها ظروفها القاسية فى شبه الجزيرة العربية، فاستغلهم البيزنطيون درعاً يقيهم من وثبات القبائل العربية التى تخرج من شبه الجزيرة تجاه الخصب الوفير فى الشمال من جهة، ومن جهة أخرى يصد عنهم غارات أعدائهم الدائمين «الفرس» وأتباعهم من عرب الحيرة «المناذرة»، وكان الذى تمثل هذا الدورمن قبائل العرب فى العصر البيزنطى هم قبائل بنى غسان التى علا شأنها فى هذا الصدد.

غير أن احتدام المشكلة الدينية وتفرق المسيحيين إلى مذاهب شتى، وتبنى حكومة القيصر لأحد هذه المذاهب ومحاولة فرضه على الناس

---

(١) إبراهيم أحمد العدوى (الدكتور): الأمويون والبيزنطيون ص ٤ ،الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٨٣هـ - ١٩٦٣م.

بالإجبار[1] ، كل هذا قد أدى إلى بغض الشاميين لسادتهم من الروم، والانتحار فى سبيل ألا يخضعوا لمذهب الإمبراطور. وبالفعل فإن هرقل قد أخفق فى سعيه حينما أراد حل المشكلة بإجبار الناس على اعتناق مذهبه «المونوثيلى» ،غير أن الأمر فى بلاد الشام لم يبلغ من الشدة ما بلغه فى مصر، فقد كان «اثناسيوس» بطريق الروم فى أنطاكية صاحب كياسة وأناة. كما كان لوجود الإمبراطور نفسه فى الشام أثر فى تخفيف حدة الخلاف ومنع الخروج، ولكن لم يمض زمن

---

(١) وردت مسألة الخلاف الدينى بين المسيحيين فى الكتاب الأول من هذاالبحث ص ٣١-٣٧ وملخصها: أن هذا الشقاق المذهبى بدأ حين ثار الجدل بين المسيحيين حول طبيعة المسيح وتعددت آراؤهم فى ذلك، حتى صاروا جماعات وشيعاً تتناحر فيما بينها، وكل جماعة تدلل لرأيها وتنتصر له، ثم تمثلت تلك الجماعات فى مذاهب مستقلة متصارعة، كان من أهمها على المسرح السياسى فى الإمبراطورية:

١ - النساطرة: ويقولون بأن للمسيح طبيعتين: إلهية وبشرية، وقد اتبع الأباطرة هذا المذهب، واعتمدوه مذهباً للدولة.

٢ - المونوفيزيتيون: وهم القائلون بالطبيعة الواحدة للمسيح، ويأتى اسمهم من الكلمتين اليونانيتين: "Monos" وتعنى: واحد، مضافة إلى كلمة: "Physis" وتعنى: الطبيعة. وقد ساد هذا المذهب ولايات الدولة الشرقية كسورية وأرمينية ومصر.

٣ - الهراطقة: وهم الذين ينكرون ألوهية المسيح، ويقرون بأنه بشر وأمه مريم، ولم يلق هذا المذهب رواجاً فاندرى أصحابه.

ولم تفلح سياسة الدولة فى التوفيق بين هذه المذاهب، فكانت آخر محاولة فى ذلك هى ما قام به هرقل بعد دحره للفرس وإخراجهم من ولايات الإمبراطورية، حيث عمد إلى ابتداع مذهب جديد يعيد به وحدة الكنيسة المسيحية، ويقضى به على ما ترتب على مجمع خلقيدونية (٤٥١م) من خلاف، ويستميل به مسيحيى الشام ومصر، واستخدم فى ذلك أسلوب القوة والإجبار، فلم يصل إلى ما أراد، وازداد الناس نفوراً منه.

طويل حتى ظهر الضرر المحقق الناشىء من سعى الإمبراطور فى أمر الكنيسة[١] .

ومن هنا يشير بتلر إلى أن تشدد **هرقل** فى فرض مذهبه «المونوثيلى» أدى إلى اشتداد العصيان والرفض له ، كما أدى إلى خروج الشام ومصر من حوزة الإمبراطورية، وترحيب الأهالى فيهما بالجيش الإسلامى حين فتح بلادهم. ويوضح ذلك بأن **هرقل** لم يستجب لنداءات ومحاولات «صفرونيوس» بطريق بيت المقدس بترك هذا المذهب، وتجنب إرغام الناس عليه، بل كان العكس من ذلك؛ فعندما حاول **صفرونيوس** إقناع **قيرس** (حاكم مصر البيزنطى) أو استمالته لهذا الرأى بكل ما أوتى من قوة فى الحجة وبلاغة فى الخطاب وخلابة فى الخلق، لم يفلح، وكان ذلك فى القسطنطينية، فعاد صفرونيوس إلى بلاد الشام آسفا كئيباً، ثم حاول ذلك أيضاً مع هرقل فلم يفلح[٢] .

فظل أبناء الشام – على هذا – رعايا وغرباء، وكثيراً ما كانوا يضطرون لبيع أبنائهم ليوفوا ما عليهم من الأموال، وكثرت المظالم والسخرة والرقيق، فقد كان على الشعب فى الشام أن يؤدى الجزية وعُشْر غلاته وإتاوة من المال ورسماً على كل رأس. كما كان للشعب الرومانى

---

(١) ألفريد. ج. بتلر(الدكتور): فتح العرب لمصر ١٣٩/١، تعريب / محمد فريد أبو حديد القاهرة ١٩٨٩، الندوى: أبو الحسن على الحسينى: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين، ص ٢٧ ،الطبعة الثامنة، القاهرة ١٩٨٩م.

(٢) بتلر: نفس المرجع ص ١٤٠.

موارد مهمة من الجمارك والمناجم والضرائب والحقول الصالحة لزراعة الحنطة والمراعى، يؤجرونها من شركات المتعهدين يسمونهم «العشارين» يبتاعون من الحكومة حق جباية الخراج، وفى كل ولاية عدة شركات من العشارين، ولكل شركة مستخدمين من الكتاب والجباة يظهرون فى مظهرالسادة، ويتناولون أكثر مما يجب لهم تحصيله، ويسلبون نعمة الأهالى، وكثيراً ما يبيعونهم بيع الرقيق استيفاءً لما لهم، وقد أوجز أحدهم السياسة الامبراطورية للرومان بقوله: الراعى الصالح يجز صوف غنمه ولا ينتفه، فمضى القرنان وأباطرة الرومان يكتفون بجز سكان مملكتهم، يسلبون منهم كثيراً من الأموال، ولكنهم يحمونهم من العدو الخارجى[1] .

وهكذا فقد «حكم الرومان الشام سبعمائة سنة بدأ معهم فى البلاد النزاع والشقاق والاستبداد والأنانية وقتل الأنفس، وحكم اليونان الشام ٣٦٩ سنة سادت فى عهدهم الحروب الطاحنة والمظالم، وظهرت المطامع اليونانية بأعظم مظاهرها، وكان حكمهم من أشد الويلات وأشأم النكبات على الأمة الشامية»[2] .

---

(١) كرد على: خطط الشام ١٠٣/١.

(٢) المرجع السابق والصحيفة.

المبحث الثاني
الفرس في الشام

كانت العداوة بين الامبراطوريتين (الفارسية والبيزنطية) شديدة فى الغالب، وكثيراً ما دارت بينهماحروب طاحنة، راح ضحيتها كثير من رجال الدول والأقاليم التى تتبع هاتين الامبراطوريتين، بخلاف الأموال الباهظة التى استلزمت تلك الحروب جبايتها من الرعايا.

وقبيل قيام حركة الفتوحات الإسلامية فى بلاد الامبراطوريتين عمد كسرى فارس إلى توجيه ضرباته المتلاحقة للبيزنطيين، حين عرف ضعفهم وتفرقهم شيعاً وأحزاباً، وخلو خزائنهم من الأموال، فانصب همه على إخضاع دولة الروم له، وقام بتوجيه جيشين، ذهب أحدهما إلى بلاد الشام، وانطلق الآخر لاختراق قلب آسيا الصغرى مستهدفاً القسطنطينية.

وكانت قيادة الجيش الذى توجه لغزو الشام لـ«خوريام» الذى فوجىء بوعورة مسالك الشام وصعوبة حصار مدائنه، حتى لم يقدرعلى المسير إلى بيت المقدس بعد الاستيلاء على دمشق وقيصرية إلا فى السنة الخامسة من حكم هرقل، حيث أرسل من مقره فى قيصرية إلى بيت المقدس يدعوها إلى التسليم للملك الأعظم الفارسى، وتحقق له ما أراد حيث أسلم اليهود - الذين رحبوا بالزحف الفارسى - المدينة إلى قواد الفرس بعد أن غلبوا المسيحيين على أمرهم.

غير أن المسيحيين استطاعوا في غضون شهور قليلة أن يستجمعوا همتهم ويثبوا على الفرس في بيت المقدس، فيقتلون قادتهم، ويحصرون جندهم، إلا أن تلك الحال لم تستمر؛ إذ جاء قائد فارسى آخرهو (شاه ورز) فحاصر المسيحيين، وساعده اليهود على هدم الأسوار، حتى دخل المدينة بجنده وأخذها عنوة. وأعقبت ذلك مشاهد مريعة من التقتيل والنهب والتدمير، وكانت الضحايا عظيمة، أقرب ما قيل فيها إلى الذهن قول (سبيوس) و(توماس الأرظروني)، إذ قالا: إن عدد القتلى بلغ ٥٧٫٠٠٠، وعدد الأسرى ٣٥٫٠٠٠، في حين قال مؤرخو بيزنطة إن عدد من هلكوا كان ٩٠٫٠٠٠ إنسان[1] .

ومن الثابت أن القتلى كان بينهم الاف كثيرة من الرهبان والراهبات والقديسين، وكان من يفلت من أيدى الفرس يذبح بأيدى اليهود!، وأشعلت النيران في الكنائس بعد تخريبها، وأخرج الصليب المقدس بغطائه الذهبي وجواهره من تحت الأرض بعد أن دل عليه بالتعذيب، فأخذ هو وشيء لا حصر له من الآنية المقدسة من الذهب والفضة، وجعل كله غنيمة للفرس، وأرسل صندوق الصليب المقدس وزكريا البطريق هدية إلى مارية المسيحية زوج كسرى، فدفنت الصليب في حديقة وزرعت عليه الخضر، وأما سائر الأسرى فقد اشتراهم اليهود ليمتعوا أنفسهم بتقتيلهم! وكل هذا لم يحدث في سنة ولا في شهر، بل في بضعة أيام في شهر مايو ٦١٥م[1] !.

---

(١) بتلر: فتح العرب لمصر ١/٥٤، د/ السيد الباز العريني: الدولة البيزنطية ص ١١٨. بيروت ١٩٨٢م.

(٢) بتلر: فتح العرب لمصر ١/٥٥، ستيفن رنسمان: تاريخ الحروب الصليبية، جـ١ ص ٢٧. تعرب د/ السيد الباز العريني ،طبعة ثانية، بيروت ١٩٨١م.

من كل هذا نرى أن المدينة المقدسة قد نزلت بها كوارث السيف والنار، ومن لم يدركه القتل أوالأسر هرب لائذاً إلى الجنوب فى القرى المسيحية من بلاد العرب. وكان الملجأ الأكبر للهاربين المشتتين من المسيحيين هو القطر المصرى وبخاصة الاسكندرية التى لم ينقطع سيل اللاجئين إليها منذ ابتدأ غزو فارس لبلاد الشام.

وتتدرج الأحداث فى الغرابة طوراً فطورا؛ حيث أبغض الفرس اليهود وتراجعوا فى حبائهم وتعضيدهم إياهم، بعد أن كانوا بذلوهما لهم فى أول الأمر ثمناً لما قدموه لهم من المساعدة! ثم يأخذ المسيحيون بعد ذلك مكان الحظوة عند الفرس، حيث يباح لهم إعادة بناء الكنائس، ويرسل كسرى أوامره الخاصة بالإحسان إلى الأسرى من المسيحيين، وإعادتهم إلى حيث يستقرون، وأن يرجعوا بناء بيوت الدولة (المسيحية)، ثم يجيز طرد اليهود! ويتسابق الناس فى إنفاذ هذه الأوامر!.

وترضى هذه الأعمال مسيحيى الشام بعد أن قُتلوا وشُردوا وأُحرقت دورهم وكنائسهم!، فيكتب (مودستوس) – الذى جعله الفرس على رئاسة الحكم المسيحى الدينى والدنيوى فى الشام – إلى (كومتاس) – رئيس الدين فى أرمينيا – يقول له: «لقد جعل الله أعداءناأصدقاء، وأنزل الرحمة والرضوان فى قلوب غزاتنا، على حين أن اليهود الذين اجترأواعلى معاداة هذه الأماكن الشريفة وإحراقها قد شردهم الله من البلد المقدس، وقدر عليهم ألا ينزلوا به ولا يروه، وقد أرجعت فيه بيوت العبادة إلى سابق عزها ومجدها»[1] .

(١) بتلر: نفس المرجع ص ٥٨، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ص ٢٩.

وتزداد دهشتنا أكثر حينما نرى الكتاب المسيحيين من بعد يصفون كسرى هذا الذى صنع بهم ما رأينا بأنه: لم يكن بالملك الوثنى المتعصب يضطهد أصحاب الصليب ويقاتلهم، بل كان على غير ذلك، يبيح للمسيحيين حقهم فى اعتقادهم، ويبدى غيرة وإقبالا عجيبين على فهم عقائدهم، ويعجب أشد العجب من خلافهم وتطاحنهم وتنابذهم، وهو مالا يتفق مع روح دينهم، ويظهر الحرص على إزالة ما بينهم من الشقاق والخلاف. ولا ندرى[1] أكان ذلك من حدب على ما فيه صلاح أمرهم، أم كان الباعث عليه حرصاً على الكياسة فى تصريف أمورالدولة؟ فكان يجلس معهم وهم يتناظرون ويسائلهم بما هم فيه ويتدبر ما يجيبونه به. فلما أن استقر رأيه على قرار وحكم حكمه قيل إنه توعد بعض المطارنة أن يضرب أعناقهم ويهدم بيعهم إذا هم عصوا ما أمر به[2] !.

وإذا كان الكتاب المسيحيون ومؤرخوهم يعجبون مرتين: فى الأولى لما أصاب المسيحية المسيحيين على أيدى الفرس. وفى الثانية لهذا التعاطف والتراحم الذى تلاحمت خيوطه وتماسكت عراه بين الغاصب والمغصوب والقاتل والمقتول إذا كانوا يعجبون ويندهشون لهذا، فإنا نعجب ألف مرة لهذاالشعب الذى آمن برحمة غزاته وسماحتهم، على الرغم من أن أعداءهم مشركين، ولم يلتفت هذا الشعب (من النواحى الدينية والتاريخية والسياسية) إلى سماحة وعدل المسلمين الذين لم يقتلوا أو

---

(١) مايزال الكلام لبتلر من ص ٥٩.

(٢) بتلر: نفس المرجع ص ٥٩.

يتشفوا أو يحرقوا، ثم هم مع كل هذا يحملون شريعة تهدى إلى الحق وإلى طريق مستقيم. هذا من ناحية المسيحيين.

أما عن اليهود. فإن دهشتنا نحن المسلمين تزداد حينما نراهم – وهم المعدودون من أهل الكتاب وسكان القدس – يرحبون بالغازى الفارسى المشرك فى بيت المقدس، الذى يدعون أهميته الدينية والنفسية لهم، ثم يساعدوه فى اختراق المدينة وتقتيل المسيحيين، ثم إحراقها، وكل هذا فى مقابل ثمن بخس هو رضا الفارسيين عنهم لفترة، ثم ينقلبون بعدها عليهم قتلاً وتشريدا، وتبلغ الدهشة – الان – فى أواخرالقرن العشرين ومطلع الحادى والعشرين – مداها حين نراهم – أى اليهود – يعملون على جعل القدس عاصمة لدولتهم، يعززهم فى ذلك «الفيتو الأمريكى» البغيض، وهذا بخلاف ما يحدثونه بالمسلمين فى فلسطين ولبنان من مذابح جماعية بغير حق، حتى فى داخل المساجد، وأثناء أداء الصلوات!. ومن يدرى، فلعلهم يعتصمون بالقدس – الآن – ليدخلها عليهم المسلمون كما دخلها الفرس على المسيحيين، أو كما دخلها الصليبيون على المسلمين من قبل!.

المبحث الثالث

حروب الروم لإخراج الفرس وآثارها علي السكان في الشام ومصر

لقد كان من حكمة التاريخ فى ترتيب أحداثه أن يقع الغزو الفارسى لبلاد الإمبراطورية البيزنطية قبيل قيام حركة المد الإسلامى بسنوات قلائل، حتى يفرز لنا الواقع العسكرى والدينى والاجتماعى عدة مستجدات، **منها**: ذلك التناحر والتصارع بين الامبراطوريتين العظميين اللتين لم تتحر إحداهما فى مواجهة الأخرى أية نوازع دينية أو أخلاقية أوحتى إنسانية، بل استهدفت كلتاهما الأخرى بلا روية ولا تعقل فى إلحاق الدمار والخراب بشعوبها وأراضيها ومقدساتها. **ومنها**: ما رأيناه من اليهود القاطنين فى داخل الامبراطورية البيزنطية من تعاون مع أعدائها، ثم عدائهم للإمبراطورية البيزنطية ذاتها، وما تلاه من ويلات وقعت باليهود أنفسهم من كل من مال عليهم من الفرس والروم. **ومنها**: ما ترتب على تاريخ العصر وأحداثه بالنسبة لشعوب الدولتين، تلك الشعوب التى مزقتها الحروب، وطحنتها الجبايات، واستذلتها الأهواء والتفرق المذهبى. ليسجل لنا التاريخ بذلك أن تلك الحال التى كان عليها العالم إذ ذاك كانت بحاجة إلى رسالة جديدة، وعقيدة واضحة، وحكاماً عدولاً، وهذا قد تمثل جميعه فى موجة الفتوحات الإسلامية التى انطلقت تحمل عقيدة التوحيد، وعدالة الإسلام، وكرامة الإنسان.

ويمكننا أن نشاهد ما جرى بين الفرس والروم فى آخر جولة وقعت بينهما قبيل مجيئ المسلمين. فحينما تولى هرقل عرش امبراطورية الروم

«نذر نفسه وجيشه لله، ومضى على أنه محارب مسيحى يقاتل قوى الظلمة، فتصورته الأجيال التالية على أنه أول محارب صليبى»[١] . لكنه لم يكن كفؤاً لذلك فى تلك الفترة؛ حيث بلغت به الحال مبلغاً سيئاً، وهوى ملكه حتى صار لا يتعدى أسوار عاصمته، وخيبت عند ذلك الآمال التى أشرقت على الناس عند بداية توليه، وعلتها سحابة داكنة، ورأوا أنه قد ذهبت عن ذلك العاهل همته الشماء التى مهدت له سبيل العرش، وحل محلها الفتور واليأس.

ويبدو أنه كان قد خارت نفسه، وضاع منه الأمل فى الخلاص من الفرس منذ أن علم أن مصر قد انفصلت عن دولته، وضاع ما كان يأتى من تلك الأرض الغنية من الجزية من أموال وقمح، ورأى أن خزائنه خاوية من المال والغلال، وحوله أعداء ضارية تحصره وتهدد أسواره، ولايقف دونها من حماة إلا جند خائر الهمة منفرط النظام، وسولت له نفسه أن يهرب ناجياً، وفى ذلك ما يعزز رأى من يقول إنه كان يحس أن لاقبل له بحمل أمور تلك الدولة وهمومها، وأن وقع المصائب قد صدع نفسه، فذهب بما فيها من الشهامة والهمة، وأنه قد انخلع قلبه وتحطم منه ما كان صلبا[٢] . وقد أجهد أهل القسطنطينية ذلك الحصار الشديد المضروب عليهم طيلة ست سنوات، حتى مات أكثرهم من الجوع، فهموا أن يفتحوا أبواب العاصمة لكسرى حتى ينجون مما هم فيه.

---

(١) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ١/٢٨.

(٢) بتلر: فتح العرب لمصر ١/١٠٥.

فلما علم هرقل بذلك خاف منه، وخشى أن يسلمه شعبه إلى كسرى، فوجه إليه رسالة تحمل كل معانى الذل والتوسل، قال فيها: «إن كل ما تريد أن تلزمنى إياه من شىء فأنا ألزمه نفسى لك، وانصرف عنى»[1] . فرد عليه كسرى رداً قاسياً يعجزه به، إذ قال: «إن أردت أن أنصرف عنك فاحمل إلىَّ الفدية عنك وعن بلادك، ألف قنطار ذهب، وألف قنطار فضة، وألف جارية بكر، وألف فرس، وألف ثوب ديباج وتكون هذه الفدية جارية عليك فى كل سنة، وتحملها إلى حتى أنصرف عنك، واحمل إلى الساعة فدية هذه السنة، وعجل ذلك ولا تؤخره حتى أنصرف عنك»[2] . فكتب إليه هرقل بمنطق المستكين العاجز: «إنى أجبت الملك الرحيم إلى ما سأل، وليس عندى فى هذا الوقت تمام الفدية التى سأل، لأن الملك الرحيم قد مسك يدىَّ عن جميع أعمالى. فإن أطلق الملك الرحيم يدى فى أعمالى حتى أخرج لجمع الأموال وكل ما سأل أن أحمل إليه بعد أن ينظرنى الملك ستة أشهر ويؤمننى أن أدور البلدان وأجمع الأموال فرأيه الموفق. فأجابه كسرى إلى ما طلب)[3] . ويتضح من هذا أن هرقل كان محصوراً فى

---

(١) أفتيوش المكنى سعيد بن بطريق (البطريرك): التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق، جـ٢ ص١، بيروت ١٩٠٩م.

(٢) تلك صورة من صورالتشفى والانتقام التى كانت سائدة فى علاقات الدول والحكام ومعاملاتهم آنذاك، لو قيست بما كان من قادة المسلمين فى تصرفاتهم ومعاملاتهم لأهل البلاد المفتوحة لكان الفارق بعيداً، ولكان القياس غير متكافىء، مثلما هو الفرق بين الإسلام بسماحته وعدالته وبين مذاهب تلك الأقوام وعقائدهم حينذاك، فلا يصبح هناك وجه للمقارنة.

(٣) ابن بطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ٢/٢.

عاصمته، لا يملك حتى أن يدور فى أنحاء مملكته بحرية، إلا بإذن من الغالب.

ويدعى ابن بطريق أن **هرقل** بعد أن وجه هذه الرسالة **إلى كسرى** جمع وزراءه وقواده وقال لهم: إنما أذعنت لكسرى لأطمئنه وأطمئن أصحابه، أما أنا فخارج إلى أرض فارس[١] . غير أن هذا الكلام لا يبدو حقيقة، ولا يمثل واقعاً؛ فصورة **هرقل** فى رسالته إلى كسرى لا تشير إلا إلى متخاذل مستسلم، لا يمكن أن يتحايل للأمور، أوتدفعه الهمة إلى الخروج، وبمن يخرج وليس لديه من يقدرعلى ذلك؟ إنما يمكن الاعتماد – هنا – على الباعث الروحى الذى غذاه به **«سرجيوس»** بطريق القسطنطينية الذى أحفظه تخاذل هرقل وهوانه إلى هذا الحد الذى جعله يفكر فى نقل عاصمته إلى قرطاجنة[٢] فى شمال إفريقية، حتى يقدرعلى تجهيز نفسه فى متسع من الوقت والمجال، ثم يعود بعد ذلك لاسترداد أراضى دولته فى آسيا! «وليس لنا من سبيل إلا الحدث لمعرفة ما كان بينهما **«هرقل وسرجيوس»**، فلا ندرى بأى لهجة كلمه،ولا بأى قوة أثر فيه فجعله ينصاع لرأيه،وينزل عن عزمه الأول؟ ولكن المحقق عندنا هو أن

---

(١) التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ٢/٢، ويروى بتلر أن كسرى رفض طلب هرقل ودفعه بازدراء، كما ينقل عن «سبيوس» أن كسرى قال: إن الدولة لى وقد غصبها ثم هو يرسل الآن أموالنا إليناهدية، ولكننا لن نصبر حتى نأتى به إلى قبضة يدنا، وقتل الرسل ولم يرسل إلى هرقل جوابا (فتح العرب لمصر ١/١٠٤ حاشية رقم ٢).

(٢) السيد الباز العرينى (الدكتور): الدولة البيزنطية ص ١١٦، وقرطاجنة هى: مدينة كبيرة كانت للروم، فى شمال الجزائر، قريبة من الساحل، وكانت على غرار الإسكندرية بمصر.

البطريق نفخ فى روح الإمبراطور روحاً جديداً، وجعله يقسم له على المذبح الأكبر فى الكنيسة الكبرى أن يؤدى أمانته، وأن يقاتل فى سبيل تخليص الدولة من أعداء الصليب»[(١)] .

هذا إلى جانب أن رد كسرى على رسالة هرقل قد أحدث هزة عنيفة فى نفوس الروم، أيقظتهم من سُباتهم، وأشعلت فيهم الحماس لتخليص البلاد من مغتصبيها الكفرة، فكان إقبال الناس على الحرب عندما ندبهم هرقل إليها عظيماً، فاستطاع أن يجمع جيشاً كبيراً ويجهزه، وبلغت عدة من اجتمع إليه فيما بعد مائة وعشرين ألفاً، واتخذ قراره بنقل جيشه إلى خليج «إيسوس» فى الركن الشمالى الشرقى من البحرالمتوسط، وأن يجعل مقره فى «قيلقيا» فكانت هذه جرأة عظيمة منه، ساعده فيها ما يملك من سفن كثيرة، وأن الفرس لم يتوجوا انتصاراتهم البرية بنصر بحرى، حيث لم تكن لهم فى هذا المجال دربة، فلم ينتفعوا طيلة السنوات العشر التى قضوها بما تحت أيديهم من الثغور والموانى.

ولكن كانت المشكلة الكبرى التى واجهت هرقل هى مشكلة الإنفاق على هذا الجيش، فقد ورث خزانة خالية من المال[(٢)] ، وانقطع ما كان يأتيه من سائر الولايات، فاعتمد على ما تحصل لديه من قروض الكنيسة، كما كان لابد للسوريين والمصريين أن يؤدوا مرة أخرى ضرائب باهظة، وأن يروا أموالهم تنساب إلى خزائن الحكومة الأرثوذكسية[(٣)] .

(١) فتح العرب لمصر ١/١٠٥.

(٢) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ١/٢٩.

(٣) المرجع السابق والصحيفة.

وبعد أن أتم **هرقل** استعداداته الحربية خرج فى حرب دينية تزكيها روح الثورة والحماس فى نفوس الجند، فدخل الكنيسة الكبرى، ثم خر ساجداً، يصلى لله ويسأله المعونة والبركة فيما هو مقدم عليه، وكان ممن شهد الصلاة معه «**جورج البيزيدى**» شماس الكنيسة وسادنها فقال: «أسأل الله أن تصبغ نعلك فى دماء عدوك حتى يصبح نعلك الأسود وقد احمر لونه» وسار **جورج** هذا مع الجيش شاعراً وقسيساً فى وقت واحد، فأنشد يصف الروح التى أحياها **هرقل** فى الأمة:

خشى الروم من الفرس وقد	**هربوا فى الحرب من وقع الأسل**
وغدوا والجبن من عاداتهم	**منذ حل الخوف فيهم والفشل**
من سوي قولك أحيا موتهم	**فكساهم ثوب عزم وأمل؟**
من سوي عزمك قد بد لهم	**باعثاً فى كل قلب ما انخذل؟**
ما سوي حزمك قد أنشرهم	**بعد أن كانوا كأحجار الجبل**
يثقلون الأرض من كثرتهم	**ثم لا يغنون فى أمر جلل**[1]

وتكالت حروب **هرقل** للفرس بفتح العديد من المدن وسقوطها تباعاً، وكان مما ساعده فى ذلك أن الفرس كانوا يسحبون قواتهم من مواقعها فى الموانى والسواحل ليواجهوا بها جموع الروم، حتى فر كسرى هارباً هرباً مهيناً، وأخذت الأمور فى مصر والشام تعود إلى مسارها التى كانت عليه من قبل، وذلك منذ منتصف سنة ٦٢٨م، حيث أذيعت بشارة النصر من داخل كنيسة «أيا صوفيا» بالقسطنطينية.

---

(١) يظر: نفس المرجع ص ١١٠

يقول بتلر: «في السنة التالية وهي سنة ٦٢٩م سار الإمبراطور يقصد الحج إلى بيت المقدس في أول الربيع ... وقد سجل التاريخ حادثتين في رحلته هذه:

الأولى: أن بعض المؤرخين يذكرون أنه قد أتى عند ذلك رسول إلى – حمص – أو أذاسة – من قبل النبي – محمد صلى الله عليه وسلم – بكتاب يدعو فيه هرقل إلى الإسلام.

وأما الحادثة الثانية: فهي أن الإمبراطور عندما بلغ طبرية أرسل إليه يهودها وفداً معهم الهدايا العظيمة يطلبون منه عهداً يضمن لهم السلامة. فقد ذكروا ما أتوا من الجرائر في المسيحيين، وخشوا أن يقتاد الإمبراطور منهم، ولكنه من عيهم بالعهد، وكان من حرص اليهود وحيطتهم أن أخذوا منه بذلك العهد كتاباً[1]، على الرغم من أنه لم يكن يكن لهم الكراهية والعداء[2] !.

غير أنه بعد أن وقف على التفاصيل الكاملة لما قام به اليهود من دور أثناء غزو الفرس[3]، جعل أول أموره السياسية أن ينكل باليهود تنكيلاً فظيعاً، انتقاماً منهم، وكان الناس والقسوس كلاهما يتسابق بالوشاية إلى الإمراطور بهذا الشعب، وإيغار صدره منهم، يتهمونهم بأشنع من تهم الفرس، وأنهم كانوا أشد منهم فتكا بالمسيحيين، وأفظع منهم جرماً في تدمير الكنائس وإحراقها، وأنه لو كان قد علم بما فعله اليهود من فتك

---

(١) بتلر: فتح العرب لمصر ١١٧/١،

٢ – ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ٢٩/١.

(٣) يروى رنسيمان أن الذى أخبر هرقل بذلك رجل يهودى من أهل طبرية، فهل لم يكن هرقل فعلاً يعلم بصنيع اليهود هذا طيلة فترة التسلط الفارسى؟!

بالمسيحيين بالسيف والنار لما تردد فى أن يقسو عليهم ويشتد فى حكمهم. ومازالوا به حتى أزالوه عن رأيه، ودفعوه إلى نقض عهده. فأمر أن يجلى اليهود عن بيت المقدس، ويمنعوا أن يعودوا بعد ذلك إلى ما بعد أسوارالمدينة بثلاثة أميال.

وإنه لمن الجدير هنا أن نذكر أنه قبل ذلك ببضع سنوات كانت خيانة اليهود للنبى ﷺ فى المدينة المنورة، ونقضهم للعهد الذى أمضاه معهم منذ دخلها، ومحاولتهم قتله ﷺ ، والتحزب مع المشركين للخلاص منه ومن دينه. وهذا مما يؤكد على أن اليهود هم اليهود فى كل مكان أو زمان. غير أنه مما يدعوا للدهشة أن اليهود إذا كانوا قد خانوا المسيحيين حين غزْو الفرس للشام، فإن الفرس مالبثوا أن تنكروا للجميل، وأرهقوهم ذلاً ونكالاً، ثم هاهم يمكرون على **هرقل** ويحصلون منه على كتاب بعهد أمان لهم، ما لبث هو أن نقضه بعد قليل، واستذلهم وأرهقهم. إذا كان ذلك فإنا لا نجد فى سيرة رسول الله ﷺ معهم إلا كل معروف والتزام بما أعطاهم من العهد، ومع ذلك يبادءونه بالخيانة، ويستعْدون عليه الأُحزاب، ومن ثم يتأكد أن ليس لهم عهد ولا ذمة، وأنهم إنما يعاهدون للغدر، ويصالحون للخيانة!.

لهذا استحقوا ما أوقعه بهم **هرقل** حينما رجع فى عهده لهم، وأجاب المسيحيين فى الشام إلى كل ما طلبوه من الانتقام، فوقعت مقتلة عظيمة تشبه أن تكون عامة، حتى لم يبق منهم أحد فى دولة الروم ومصر والشام إلا من هرب أواختفى[١] .

---

(١) سعيد بن بطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ص ٤.

المبحث الرابع

فتوحات المسلمين فى الشام

بعد أن وقفنا على أحوال أهل الشام فى ظل الحكم الفارسى أو التبعية لبيزنطة، يمكننا الآن أن نأتى إلى بداية دخول المسلمين هذه البلاد، وهم يحملون ديناً سمحاً جديداً، يطبقون تعاليمه بكل دقة وحكمة، ويلتزمون منهج العدل فى الخصوم قبل الأعوان، فى حين كان مسيحيو الشام يتطاعنون حول نزعاتهم ونزاعاتهم الدينية، فى مسألة طبيعة المسيح التى حاول **هرقل** اتخاذ حل وسط فيها، فزادها شططاً، وأجج لهيبها، فلم ينقطع الجدل، بل عاد أعنف مما كان، حتى وصف **هرقل** نفسه بالإلحاد، وجر على نفسه سخط الجميع. «والواقع أن الشعور الذى أثاره هذا الإمبراطور قد بلغ من المرارة مبلغاً يبرر الاعتقاد بأنه حتى السواد الأعظم من الأرثوذكس من رعايا الدولة البيزنطية الذين كانوا يقيمون فى البلاد المفتوحة فى عهد هذا الإمبراطور هم الذين رحبوا بالعرب، وقد نظروا إلى الإمبراطور نظرة الكراهية باعتباره خارجاً على الدين، «كانوا يخشون أن يأخذ فى اضطهادهم وإرغامهم على القول بوحدة مشيئة المسيح، ومن أجل هذا استقبلوا بالرضا - بل بالحماسة - هؤلاء السادة الجدد الذين وعدوهم بالتسامح الدينى، وأظهروا رغبتهم فى تسوية مركزهم الدينى واستقلالهم القومى...»[1].

---

(١) السير توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٧٢، ترجمة د/ حسن إبراهيم حسن، د/ عبد المجيد عابدين، إسماعيل النحراوى، (طبعة ثالثة) القاهرة ١٩٧٠م.

وقد أدرك هذا بخاصة نصارى الشام قبل عوامهم، يقول **«فيدرينوس»**[١] : «على حين كانت الكنيسة تحتوشها الملوك ومن لا يخشون الله من القسوس، خرج من الصحراء عملاق[٢] ليعاقبنا على ذنوبنا». هذه كلماته التى ذكر فيها نشأة الإسلام، وهى كلمات قليلة ولكنها تدل على أن المسيحيين كانوا يشعرون أن محمداً كان رسول من الله، أو هو على الأقل سوط من الله أرسله عليهم. وهذا شعور يظهرعلى لسان كثير ممن كتب من المسيحيين فى ذلك الوقت، أمثال **«سبيوس»** الأرمنى، فقد قال قولاً عجباً، منه: «فى ذلك الوقت ظهر رجل من ولد **إسماعيل** اسمه **محمد** كان تاجراً، فقال للناس إن الله أرسله بدعوة الحق، ولما كانت الدعوة من الله اجتمع الناس بأمره ودانوا لشريعته، وهجروا عبادة الأوثان الباطلة، وأنابوا إلى الله الحى القيوم الذى ظهر لأبيهم **إبراهيم**، وقد أمرهم **محمد** ألا يأكلوا الموقوذة، ولا يشربوا الخمر، ولا يكذبوا، ولا يزنوا»، والعجيب أن **سبيوس** هذا كان مسيحياً، وكان فوق ذلك أسقفاً[٣] .

وبعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الإسلامى خمسة قرون، يجيئ **«ميخائيل الأكبر»** – بطريق **أنطاكية اليعقوبى**، فيحبذ كل ما كتبه إخوانه فى الدين، ويرى أن إصبع الله فى الفتوحات الإسلامية. ثم يسرد اضطهادات **هرقل** ويقرر أن كان «هذا هو السبب فى أن إله الانتقام الذى تفرد بالقوة والجبروت، والذى يديل دولة البشر كما يشاء فيؤتيها من يشاء،

---

(١) بتلر: فتح العرب لمصر ١/١٣٥.

(٢) هو يقصد النبى محمداً ﷺ، أو مجموع أمة الإسلام التى كانت حاملة لواء الفتح.

(٣) بتلر: فتح العرب لمصر ١/١٣٥.

ويرفع الوضيع، لما رأى شرور الروم الذين لجأوا إلى القوة فنهبوا كنائسنا، وسلبوا أديارنا فى كافة ممتلكاتهم، وأنزلوا بنا العقاب فى غير رحمة ولاشفقة، أرسل أبناء إسماعيل من بلاد الجنوب، ليخلصناعلى أيديهم من قبضة الروم. وفى لحق أننا إذا كنا قد تحملنا شيئاً من الخسارة بسبب انتزاع الكنائس الكاثوليكية منا وإعطائها لأهل خلقيدونية، فقد استمرت هذه الكنائس فى حوزتهم. ولما أسلمت المدن للعرب خصص هؤلاء لكل طائفة الكنائس التى وجدت فى حوزتهم، ومع ذلك لم يكن كسبا هيناً أن نتخلص من قسوة الروم وأذاهم وحنقهم، وتحمسهم العنيف ضدنا،وأن نجد أنفسنا فى أمن وسلام»[1] .

وهكذا كان الشعور العام الذى ساد بلاد الشام قبل الفتح الإسلامى، ولكن ليس معنى هذا أن هذه الأمم المسيحية ستقابل جيوش المسلمين بالترحاب والحفاوة، فإن هنالك الدولة الإمبراطورية التى ستناضل حتى آخر لحظة فى سبيل الحفاظ على ممتلكاتها وبسط السيادة لمذهبها. لكن كل هذا يؤكد لكل مطالع لهذا التاريخ أن المسلمين لم يوجهوا همتهم لحرب الشعوب وإنما قصدوا حرب أعداء الشعوب من الحكام الذين يحولون بينهم وبين الدين الجديد، أو على الأقل تنسم ريح الحرية، والتخفف من الأثقال الجسيمة فى ظل دولة الإسلام وسماحة أهله.

وعلى ما تقدم رأينا أكثر مدن الشام تطلب المصالحة مع المسلمين والدخول فى عهدهم وأمانهم، فما أن بلغ الجيش الإسلامى الذى وجهه أبو

---

(١) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٧٣.

بكر وادى الأردن، وعسكر **أبو عبيدة بن الجراح** فى فحل[1] حتى كتب أهالى هذه البلاد إلى المسلمين يقولون: «يامعشر المسلمين، أنتم أحب إلينا من الروم وإن كانوا على ديننا، أنتم أوفى لنا وأرأف بنا وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا. ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا»[2] .

وحين حاصر **خالد بن الوليد** مدينة دمشق استقبله أسقفها، وخاطب خالداً بقوله: «إن أمركم مقبل، ولى عليك عدة فصالحنى عن هذه المدينة، فدعا خالد بدواة وقرطاس، فكتب: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى خالد بن الوليد أهل دمشق، إذا دخلها أعطاهم أماناً على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم وسور مدينتهم لا يهدم، ولا يسكن شىء من دورهم، لهم بذلك عهد الله وذمة رسول الله ﷺ والخلفاء والمؤمنين لايعرض لهم إلا بخير إذا أعطوا الجزية»[3] . ولم يتنكر خالد لمعروف كان قد أسداه له بعض أهل المدينة؛ فإنه فى المكان الذى يعرف اليوم «بدير خالد» كان نفر منهم قد أعطوا خالدا سلما صعد عليه السور، فشرط لهم شرطاً فى خراجهم أن يخفف عنهم، فأنفذ لهم أبو عبيدة شرط خالد.

فلما ضربت دمشق – بهذا – المثل فى عقد الصلح مع المسلمين، وأمنت بذلك من السلب والنهب، لم تتوان سائر مدن الشام فى أن تنسج

---

(١) فحل: اسم موضع بالشام كانت فيه هذه الوقعة بين المسلمين والروم. (ياقوت: شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى) ت ٦٢٦هـ، معجم البلدان، ٢٣٧/٤. بيروت ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م.

(٢) توماس أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٧٣.

(٣) البلاذرى: (أحمد بن يحيى بن جابر بن داود) ت ٢٧٩هـ: فتوح البلدان ص ١٢٨، بيروت ١٤١٢هـ – ١٩٩١م.

على منوالها[١] ، فأبرمت حمص ومنبج وبعلبك معاهدات مماثلة مع المسلمين، وصالحهم أبو عبيدة على أن أمنهم على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم، وكتب لهم: «بسم الله . هذا كتاب أمان لفلان وفلان – بأسماء بطارقة البلدان – وأهل بعلبك رومها وفرسها وعربها، على أنفسهم وأموالهم وكنائسهم ودورهم وداخل المدينة وخارجها وعلى أرحائهم، وللروم أن يرعوا سرحهم ما بينهم وبين خمسة عشر ميلاً، ولا ينزلوا قرية عامرة، فإذا مضى شهر ربيع وجمادى الأولى ساروا إلى حيث شاءوا، ومن أسلم منهم فله مالنا وعليه ما علينا، ولتجارهم أن يسافروا إلى حيث أرادوا من البلاد التى صالحنا عليها، وعلى من أقام منهم الجزية والخراج. شهد الله وكفى بالله شهيداً»[٢] .

اليرمـــــوك[٣] :

كانت خطة **أبى بكر الصديق** رضي الله عنه في مستهل فتحه للشام أن وجه أربعة جيوش إسلامية[٤] ، على كل جيش منها قائد، هم: **عمرو بن العاص**،

---

(١) أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٧٣.

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان ص ١٣٦ . والمعنى أن الجزية على الرءوس والخراج على الأرض.

(٣) اليرموك: واد بناحية الشام، بجوار بصرى، يسيل فيه الماء حتى يصب قرب بحيرة طبرية، واسمه اليونانى "Hieromax" ، عربه العرب «يرموك»، وعلى ضفاف ذلك الماء حصلت تلك الوقعة الهائلة، وهى ذات شأن عظيم فى فتوح الشام، لأن فوز المسلمين فيها نشطهم على مواصلة الفتح، وأضعف عزائم الروم. «جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى ٧١/١»، «ياقوت: معجم البلدان ٤٣٤/٥».

(٤) هذا التعدد فى الجيوش لا يقلل من قيمة خطة أبى بكر الحربية، بل إن واقع بلاد الشام كان يقتضى هذا التعدد لاتساع رقعة الأقاليم، وتعدد المدن والقطاعات التى قد تستطيع إذا ما خرج إليها جيش واحد أن تحوطه وتبيده، وفعلاً حققت تلك الأجناد كسباً كبيراً فى فتح كثير من المدن والقرى. فلما أدرك قادة المسلمين قَصْد الروم مجابهتهم متفرقين، فطنوا إليه واستشاروا واجتمعوا فى جيش واحد.

وأبو عبيدة بن الجراح، وشرحبيل بن حسنة، ويزيد بن أبى سفيان. وكانت هذه خطة عاجلة استدعتها الظروف؛ حيث لم يكد **أبو بكر** ينتهى من فتنة المرتدين حتى عمد إلى إخراج هذه الجيوش، كما لم يكن المسلمون قد خبروا حروب الروم بعد، فهذه هى أول مرة يخرج فيها جند المسلمين لملاقات الروم. وم ثم استغل **هرقل** هذا التقسيم فى أجناد المسلمين، فأعد لكل جند جيشاً كثيفاً يتصدى له، وقد خبرأن المسلمين لم يكونوا – بأى حال – على مستوى الروم، لا فى العدد ولا فى السلاح، فهو يقصد بذلك أن يحارب المسلمين متفرقين، فيهزمهم جنداً بعد آخر.

وهنا أدرك المسلمون كل أبعاد الموقف، وأيقنوا أن سبعة وعشرين ألفاً[1] هم جميع جند المسلمين، لا يقدرون على حرب الروم الذين يجاوزعددهم مائة وخمسين ألفاً. فكتب قادة الأجناد إلى **عمرو بن العاص** بفلسطين يسألونه: ما الرأى؟، فأجابهم: إن الرأى الاجتماع، وذلك أن مثلنا إذا اجتمع لا يغلب من قلة، وإذا نحن تفرقنا لم يبق الرجل منا فى عدد يقرن فيه لأحد ممن استقبلنا، وأعد لنا لكل طائفة منا، فاتعدوا اليرموك ليجتمعوا به. وكانوا قد كتبوا إلى **أبى بكر** أيضاً بمثل ما كتبوا به إلى **عمرو**، فجاءهم كتاب الخليفة بمثل ما جاءهم من **عمرو**، «أن اجتمعوا فتكونوا عسكراً واحداً، والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين، فإنكم أعوان الله، والله ناصر من نصره، وخاذل من كفره، ولن يؤتى مثلكم من قلة، وإنما

---

(١) هذا على رواية الطبرى ٣/ ٣٩٤. أما البلاذرى، فيرى أن كان المسلمون أربعة وعشرين ألفاً فقط، فتوح البلدان ص١٤٠.

يؤتى العشرة الاف والزيادة على العشرة آلاف من الذنوب، واجتمعوا باليرموك متساندين، وليصل كل رجل منكم بأصحابه"[1] .

فهذه الروح التى أظهرها المسلمون - خليفة وقادة وجنداً - تجاه أعدائهم وقصدوا بها إليهم، تدل دلالة قاطعة على أن المسلمين لم يكونوا يعتدون بعددهم وعتادهم بقدر ما يعتدون بثقتهم فى الله وفى نصره لأوليائه، وهذا آت من أن وجهتهم ما كانت إلا تبليغ الدعوة، وإسعاد كل الشعوب والأمم بها. وعليه، فلو لم تكن تلك هى نية المسلمين فى قصدهم وتوكلهم، لبات من الواجب عليهم أن يأخذوا لكل أمر أهبته، ويعملوا على مساواة أعدائهم فى عددهم وعدتهم، إن لم يزيدوا عليهم ويتفوقوا، وهذا أمر يستحيل تحقيقه فى مواجهة عدوهم الذى جمع لهم جند الشام والجزيرة وأرمينية والقسطنطينية.

وفى هذا دليل ظاهرعلى أن التمسك بأسباب السماء أجدى من التعلق بأسباب الأرض وحدها، بدليل أن معظم معارك وحروب الفتح الإسلامى لم يكن المسلمون فيها سوى أقل من الربع عدداً وأضعف عدة، ومع ذلك كان يحالفهم النصر والظفر، تطبيقاً للقاعدة العليا: ﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾[2] . ومن ثم فقد كان حرياً بمن اشتطوا فى عدائهم للإسلام والمسلمين أن يتأملوا هذه الفوارق والمفارقات فى الأسباب والرجال والسلاح، وساعتها كانوا سيعلمون أن هؤلاء القوم (المسلمين) لابد أنهم على شىء من الحق، فما هو إذن؟

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٣٩٣، جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى ١/٧١.

(٢) الآية: ٢٤٩ من سورة البقرة.

وبالطبع لم يفكر الروم في هذا، بل جعلوا كل همهم الاعتماد على الكثرة والكفاءة، حيث تجهزوا بمائة وخمسين ألفاً[1] - في أقل الروايات - كان على مقدمتهم «**جبلة بن الأيهم** - آخر ملوك الغساسنة في الشام - في مستعربة الشام من لخم وجذام وغيرهم، في محاولة لدحر المسلمين، وإلا دخل **جبلة** بمن معه إلى أرض الروم، ويقيم في القسطنطينية. فهذا الذي صنعه **جبلة** من جمع العرب المتنصرين الذين كانوا تحت يده، يقطع بانتفاء الوجهة القائلة بأن عرب الشام انقلبوا إلى الإسلام، ورحبوا بإخوانهم من شبه الجزيرة، تاركين سادتهم - من الفرس والروم - الذين كانوا يميلون مع أيهما في حالة النفع والمصلحة.

وفي هذا يورد «**بتلر**» وجهة متناقضة، فيقول: «فوجد الإسلام على ذلك بين هؤلاء العرب الضاربين على التخوم عدة عظيمة من رجال الحرب، شبيهين بما كان في بلاد العرب ذاتها من جنده، فما كان على المسلمين إلا أن يدخلوا هؤلاء العرب في الإسلام، ويشعروا قلوبهم عقيدتهم، ويثيروا فيهم روحه، فيصبحوا لهم عيبة ومسلحة، ولم يكن الأمر في أوله بالهين، فقد كان أكثر هؤلاء العرب نصارى، وكان كثير منهم يقاتلون مستميتين في سبيل دولة الروم ودين المسيح، غير أنه قد كان منهم من آثر علاقة الجنس، أو كان غير حريص على دين لم يفقه فيه، في حين أنه قد كانت منهم طائفة انحازت على حذر، فلم تكن مع هؤلاء ولا مع

---

(١) أورد الطبري أن الروم كانوا ٢٤٠٫٠٠٠ مقاتل، وروى البلاذري أنهم كانوا ٢٠٠٫٠٠٠ مقاتل.

أولئك، متربصة حتى يتبين لها لمن الغلبة، فتكون مع الظافر وهى آمنة. ومهما يكن من الأمر فقد كانت صلة الجنس تجعل رجحان الميل إلى المسلمين»[١] !.

وهذا الكلام ليس صحيحاً على إطلاقه؛ بل فيه كثير من المغالطة والتزيد؛ بدليل أن لو كان الجنس داعياً العرب بالشام إلى الميل مع المسلمين ما ارتد عرب شبه الجزيرة أنفسهم عن نظام الإسلام بعد وفاة النبى ﷺ ، وقبيل فتوح الشام بقليل. وأيضاً بدليل أن **جبلة بن الأيهم الغسانى** هذا حينما دعاه **عمر بن الخطاب** إلى قبول الإسلام وأداء الصدقة (الزكاة) أبى ذلك، وقال: أقيم على دينى وأؤدى الصدقة. فقال له **عمر**: إن أقمت على دينك فأد الجزية، فأنف منها، فقال له **عمر**: ما عندنا لك إلاواحدة من ثلاث: إما الإسلام ، وإما أداء الجزية، وإما الذهاب إلى حيث شئت. فدخل **جبلة** بلاد الروم فى ثلاثين ألفا من العرب. فلما بلغ ذلك **عمر** ندم. وعاتبه **عبادة بن الصامت** (أحد قادة فتح الشام آنذاك) بقوله: لو قبلت منه الصدقة ثم تألفته لأسلم[٢] . فهذا الندم من **عمر** رضي الله عنه يبين أنه كان يتمنى ألا يخرج **جبلة** بجموعه، وأن يظل فى جوار المسلمين، لئلا يكاثر عليه الروم. بل يؤكد «سيديو» أن **جبلة** هذا كان قد أسلم ثم ارتد انتقاما من الخليفة **عمر**. وكان فى اليرموك يسير بعرب غسان على رأس جيش الروم، حيث

---

(١) فتح العرب لمصر ١/١٣٥.

(٢) البلاذرى: فتوح البلدان ص ١٥٨.

كان **هرقل** يعتمد كثيراً على هؤلاء العرب، ويقول: «لايقطع الألماس إلا الألماس»[1] .

ودليل ثالث على خطأ نظرية **بتلر** نأخذه من بين عباراته، فهو يقول أن عرب الشام كانوا يقاتلون مستميتين فى سبيل دولة الروم ودين المسيح، فلم لم تجرفهم علاقة الجنس إلى الميل مع المسلمين من أول الأمر، ثم يقول إن فريقاً ثالثا آثر الحياد، ولم ينحز مع المسلمين ولا مع الروم وتمهل ينتظر لمن الغلبة. إذاً هؤلاء لم تستقطبهم علاقة الجنس إلى المسلمين، وحتى لو مالوا معهم من بعد انتصار المسلمين فإنما هى التبعية للغالب.

غاية ما يمكن قوله هناأنه من يرد الله أن يهديه ويشرح صدره للإسلام من أى جنس كان، يصير كمسلمى العرب حمية وزوداً وجهاداً، وأمثلة ذلك عديدة؛ كما رأينا فى إسلام **جورج بن توذرا** فى ذات معركة اليرموك، أو البربر فى شمال إفريقية، الذين وقفوا طويلاً فى وجه الإسلام والمسلمين، وكثيراً ما كانوا يعلنون الإسلام ثم يرتدون، فلما خلص الإسلام إلى أفئدتهم وأرواحهم أخلصوا له، وخرجوا بقيادة واحد منهم **(طارق ابن زياد)** لنقله إلى أوربا فى جنوبها الغربى (الأندلس). كما يمكن القول: إن العربى الذى يسكن ببلاد الشام إذ اهدى إلى الإسلام فإنه يلتصق بسرعة مع جند المسلمين، لتلاقيه بسرعة مع عشائره وقبائله التى يتصل معها برابطة الدم منذ أمد بعيد، فيصبح الاثنان ولا فرق بينهما. فهو الإسلام أولاً، ثم يأتى من بعده عامل الجنس.

---

(١) سيديو: تاريخ العرب العام ص ١٢٢.

وعلى كل حال فقد عسكر الفريقان على اليرموك، **فطلب المسلمون** من الخليفة **أبى بكر** أن يمدهم، لما رأوا جموع الروم، وأرادها **هرقـل** حرباً فاصلة يسترد بها الشام، ويقرر مصير سورية، فأرسل مدداً آخر بقيادة «**باهـان**» الذى قدم أمامه الشمامسة والرهبان والقسيسين، يغرون الجند ويحضونهم على القتال. فى حين قرر **أبو بكر** رضي الله عنه أن يوجه **خالد بن الوليد** من العراق مدداً للمسلمين، قائلاً: **خالد** لها، مستحثاً إياه على السير. فاجتاز **خالد** من العراق إلى الشام فى خطة لا يتخذها إلا بطل واثق ومؤمن مجاهد، حتى وصل إلى معسكر المسلمين باليرموك حال وصول **باهان**، فولى **خالد** قتاله، وقاتل كل أمير من بإزائه، حتى هزم **باهان**، وتتابع الروم على الهزيمة فاقتحموا، وتيمنت الروم **بباهان**، وفرح المسلمون بمقدم **خالد**. وحرد[١] المسلمون وحرب[٢] المشركون، وكان مع **خالد** تسعة الاف مقاتل جاء بهم من العراق[٣] .

غير أن كان المسلمون وقت وصول **خالد** إليهم فى شدة وضيق من كثرة الروم وتلاحق أمدادهم. فلما التقى الجمعان أيد الله جنده، وخذل الروم حتى التجأوا إلى الخنادق، وأخذ القسيسون والشمامسة والرهبان يحضضونهم على القتال، وينعون لهم النصرانية، حتى استبصروا وخرجوا للقتال الذى لم يكن بعده قتال مثله.

---

(١) أى جدوا وقصدوا للأمر.

(٢) يعنى اشتد غيظهم.

(٣) تاريخ الطبرى ٣/٣٩٤. وفى رواية أخرى له أنهم كانوا عشرة آلاف.

وهنا فوض **أبو عبيدة** أمور القيادة إلى **خالد بن الوليد** الذى أوحى إلى المسلمين بما لا حد له من الثقة، حين وقف فيهم فقال بعد أن حمد الله وأثنى عليه: «إن هذا يوم من أيام الله، لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى، أخلصوا جهادكم، وأريدوا الله بعملكم، فإن هذا يوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قوماً على نظام وتعبية على تساند وانتشار، فإن ذلك لا يحل ولا ينبغى، وإن من ورائكم من لويعلم علمكم حال بينكم وبين هذا، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى من واليكم ومحبته. قالوا: فهات، فما الرأى؟ قال: إن **أبا بكر** لم يبعثنا إلا وهو يرى أنا سنتياسر، ولو علم بالذى كان ويكون لقد جمعكم، إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم[١] ، وأنفع للمشركين من أمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم، فالله الله، فقد أفرد كل رجل منكم ببلد من البلدان لا ينتقصه منه أن دان لأحد من أمراء الجنود، ولا يزيد عليه أن دانوا له، إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله ﷺ . هلموا فإن هؤلاء تهيئوا، وهذا يوم له ما بعده، إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم. وإن هزمونا لم نفلح بعدها، فهلموا فلنتعاور الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غداً، والآخر بعد غد، حتى يتأمر كلكم، ودعونى إليكم اليوم، فأمَّروه وهم يرون أنها كخرجاتهم، وأن الأمر أطول مما صاروا إليه، فخرجت الروم فى تعبية لم ير الراءون مثلها قط، وخرج **خالد** فى تعبية لم تعبها العرب قبل ذلك، فخرج فى ستة وثلاثين كردوساً[٢] ، إلى الأربعين،

---

(١) يقصد تفرقهم إلى أجناد وقادة، ويرى ضرورة التحامهم فى جند واحد وتحت لواء واحد.

(٢) الكردوس: الجمع العظيم من الخيل. (وهذا النظام كان عوضاً عن نظام التقسيم الحربى المعتاد لدى العرب من مقدمة ومؤخرة وقلب وجناحين).

على كل كردوس قائد، وقال: إن عدوكم قد كثر وطغى، وليس من التعبية تعبية أكثر فى رأى العين من الكراديس[١] . ولم يكن نظام الحرب بالكراديس معروفاً عند العرب من قبل، فالظاهر أن **خالداً** عبأ الجند على هذا النظام للقاء الروم بمثل نظامهم[٢] ، وليكثر جند المسلمين فى نظر الروم.

غيرأن **خالداً** قد شعر بتهيب المسلمين وخوفهم من كثرة جند الروم - حيث كان الفارق شاسعاً بالفعل بين كلتا الجبهتين -، حتى سمع رجلاً يقول له: ما أكثر الروم وأقل المسلمين! فقال **خالد** بروح المؤمن الواثق والقائد الصلب: بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين! إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان لا بعدد الرجال. والله لو ددت أن الأشقر براء من توجيه[٣] ، وأنهم أضعفوا فى العدد.

ثم عين **خالد أبا الدرداء** قاضياً، **وأبا سفيان بن حرب** قاصاً، وعلى الطائع **قباث بن أشيم**، وعلى الأقباض[٤] **عبد الله بن مسعود**، **والقارىء المقداد**. وكان مما سنه رسول الله ﷺ بعد بدر أن تُقرأ سورة الجهاد «الأنفال» عند اللقاء. فالتزم المسلمون تلك السنة.

ويروى الطبرى أن قد شهد اليرموك ألف من أصحاب رسول الله ﷺ، كان فيهم مائة من أهل بدر[٥] . ثم أخذ القاص أبو سفيان بن حرب يعزز

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٣٩٦، النويرى: نهاية الأرب ١٢١/١٩.

(٢) جورجى زيدان: تاريخ التمدن الإسلامى ٧٢/١.

(٣) توجى الفرس: أى أصيب بالوجا، وهو أن يشتكى الفرس باطن حافره. وكان الأشقر فرس خالد قد حفى فى مسيره من العراق إلى الشام.

(٤) الأقباض: ما يتحصل من الغنائم.

(٥) تاريخ الطبرى ٣٩٧/٣.

ما قاله خالد للجند، ويشعل فيهم الحمية والحماس؛ فكان يسير فيقف على الكراديس ويقول: الله الله! إنكم زادة العرب، وأنصار الإسلام وإنهم زادة الروم وأنصار الشرك! اللهم إن هذا يوم من أيامك، اللهم أنزل نصرك على عبادك. وهكذا عبأ كل فريق للحرب، وتهيأ حسب إمكاناته المعنوية والمادية، فنشب القتال، والتحم الناس، وتطارد الفرسان، فى أهم وأقوى معركة بين الطرفين.

إسلام جـــورج[1] : فى بدايات المعركة خرج **جرجة** هذا حتى كان بين الصفين، ونادى: ليخرج إلىَّ **خالد** – وكان من العرف العسكرى آنذاك أن يلتقى القائدان فيتبارزان قبل نشوب المعركة – ، فولىَّ **خالد أبا عبيدة** القيادة مكانه، وخرج حتى وافى **جرجة** بين الصفين، حتى اختلفت أعناق دابتيهما، وقد أمن كلاهما الآخر، فقال **جرجــة: ياخالــد!** اصدقنى ولا تكذبنى، فإن الحر لا يكذب، ولا تخادعنى فإن الكريم لا يخادع المسترسل بالله هل أنزل الله على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه – يعنى أعطاك إياه – فلاتسله على قوم إلا هزمتهم؟ فقال **خالد:** لا. قال: فبم سميت سيف الله؟ قال **خالد:** إن الله عز وجل بعث فينا نبيه ﷺ ، فدعانا، فنفرنا عنه، ونأينا عنه جميعاً، ثم إن بعضنا صدقه وتابعه، وبعضنا باعده وكذبه، فكنت فيمن كذبه وباعده وقاتله، ثم إن الله أخذ بقلوبنا ونواصينا، فهدانا به فتابعناه. فقال – أى النبى ﷺ – أنت سيف من سيوف الله سله الله على المشركين! ودعا لى بالنصر، فسميت سيف الله بذلك، فأنا من أشد المسلمين على المشركين. قال **جرجــة:** صدقتنى. ثم سأله قائلاً: أخبرنى

---

(١) هو مقدم عسكر الروم، ويسمى: جورج بن توذرا، أو جرجة بن توذرا.

إلام تدعونى؟ فقال **خالد**: إلى شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبده ورسوله، والإقرار بما جاء به من عند الله، فقال: فمن لم يجبكم؟ قال: فالجزية ونمنعهم. قال: فإن لم يعطها؟ قال: نؤذنه بحرب ثم نقاتله. قال: فما منزلة الذى يدخل فيكم ويجيبكم إلى هذا الأمر اليوم؟ قال: منزلتنا واحدة فيما افترض الله علينا، شريفنا ووضيعنا وأولنا وآخرنا، ثم أعاد **جرجة**: هل لمن دخل فيكم اليوم يا**خالد** مثل ما لكم من الأجر والذخر؟ قال: نعم، وأفضل. قال: وكيف يساويكم وقد سبقتموه؟ قال: إنا دخلنا فى هذا الأمر وبايعنا نبينا ﷺ وهو حى بين أظهرنا، تأتيه أخبار السماء، ويخبرنا بالكتب، ويرينا الآيات، وحق لمن رأى ما رأينا وسمع ما سمعنا أن يُسلم ويبايع، وإنكم أنتم لم تروا ما رأينا ولم تسمعوا ما سمعنا من العجائب والحجج، فمن دخل فى هذا الأمر منكم بحقيقة ونية كان أفضل منا. فقال **جرجة**: بالله لقد صدقتنى ولم تخادعنى ولم تألفنى!، قال: بالله لقد صدقتك وما بى إليك ولا إلى أحد منكم وحشة، وإن الله لولى ما سألت عنه. فقال: صدقتنى، وقلب الترس ومال مع **خالد**،وقال: علمنى الإسلام، فمال به **خالد** إلى فسطاطه، فشن عليه قربة من ماء ليطهره ثم صلى - **أى جرجة** - ركعتين[1] .

ومع انقلابه مع **خالد** ظن الروم أنه قد حمل على المسلمين، فحملوا حتى أزالوا المسلمين عن مواقفهم. ثم ركب **خالد** ومعه **جرجة** والروم خلال المسلمين، فتنادى الناس فثابوا، وتراجعت الروم إلى مواقفهم، فزحف بهم

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٣٩٩،٩٨، ابن الأثير: الكامل ٢/٢٨٣، النويرى: نهاية الأرب ١٩/١٢٣.

خالد حتى تصافحوا بالسيوف، فضرب فيهم **خالد وجرجة** من لدن ارتفاع النهار إلى جنوح الشمس للغروب، ثم أصيب **جرجة** فمات ولم يصل صلاة سجد فيها إلا الركعتين اللتين أسلم عليهما، حيث صلى الناس الظهروالعصر إيماءً[1] .

وبالنظر إلى قصة جرجة هذه، يتبين لناأنه كان قد تأمل فيما بينه وبين نفسه أمرالإسلام والمسلمين، وعارضه بما كان عليه هو وقومه من نصرانية تهاوت فى نفوس معتنقيها حتى اختلفوا فى سبيلها، وتحزبوا شيعاً وأمماً. كما أنه قد تفهم بصدق واقع الدعوة الإسلامية وتعرف إليها، بدليل أنه علم عن واحد من أبطال المسلمين هو **خالد بن الوليد** الشيء الكثير من الصفات والتاريخ.

يدلل لهذا أنه عمد من أول لحظة إلى مقابلة قائد جند المسلمين، وشفاء نفسه بما يسمع منه من إجابات على تلك التساؤلات والخواطر التى كانت تشغله وتتحرك بها داخليته. ومعنى ذلك أن قراره هذا لم يكن وليد اللحظة، بل سبق بتفكير وتأمل شديدين، ومن ثم كانت إجابته للإسلام فورية وعلنية وواضحة، وفوق هذا كله كان نورالإسلام الذى يملأ القلب وينقح البصيرة، ما اعتزم ذو اللب استبيان الأمر واستيضاح الحقيقة. والله يهدى من يشاء لما يشاء.

إن هذه الفرصة التى أعطاها **جرجة** لنفسه للتأمل والبيان فهدته إلى الحق والإيمان، لو أن الكثيرين ممن لم يهتدوا بعد إلى الحق أعطوها

---

(١) تاريخ الطبرى ٣/٣٩٩.٩٨، ابن الأثير: الكامل ٢/٢٨٣، النويرى: نهاية الأرب ١٩/١٢٣.

لأنفسهم، فتأنوا وأعملوا فكرهم وعقولهم لصاروا – بإذن الله – إلى ما صار إليه **جرجـة**، غير أنها إرادة الله في خلقه ﴿ **فَمَن يُرِدِ اللَّهُ أَن يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ** ﴾[1] .

وإن من اللازم هنا أن نلفت النظر إلى أعمال **خالد بن الوليد** في معركة اليرموك، لما كان لها من أهمية في مجريات أحداثها؛ **فخالد** حين قدم الشام استطاع بكلمة بليغة أن يشفي صدور القادة والجند، حين أشار بتناوب الإمارة بين القادة في أيام القتال، ثم إنه عندما لمح في أعين الجند علامات الخوف، قطع عليهم ظنهم، ودفعهم إلى القتال دفعة قوية حين قال لهم: «إن هذا يوم له ما بعده» و «ما أقل الروم وأكثر المسلمين» و«إنما تكثر الجنود بالنصر وتقل بالخذلان» . ثم يعزز ذلك كله بأن يستأذنهم في أن يخوض بهم غمار الحرب، ويتولى القيادة في اليوم الأول.

وكذا هو في لقائه **بجرجة**، يستغل الموقف أحسن استغلال، فيتخذ منه فرصة ليشرح أساس الرسالة، وما أفادتهم به، بعد أن كانوا عباداً للأوثان، وما يناله من يعتنق الإسلام، ويشهد بالعبودية لله، فكأن **خالداً** بذلك قد جعلها مجالاً للبيان وطرح الأفكار، مع أن الموقف في ميدان القتال لا يحتمل هذا التفصيل، ثم هو في كل ذلك يتحرى الصدق الذي علمه الإسلام إياه، حتى يشهد له نده وقائد جند العدو بالصدق وعدم الغدر.

---

(١) من الآية ١٢٥ من سورة الأنعام .

ثم تكون منه لقطة أخرى طريفة، حين يأتيه صاحب البريد فى أثناء المعركة بخبرين ثقيلين شديدين:

أولهمـــا: وفاة الخليفة **أبى بكر الصديق**[1] ،

والثانى: عزل الخليفة الجديد **«عمر» لخالد** وتولية **أبى عبيدة** مكانه، فيتلقى القائد الأعلى لقوات المسلمين هذين الخبرين بهدوء، ويسأل الرسول إن كان قد أخبر الجند الذين تلقوه أم لا، فيجيبه بأن لا! فيكتم القائد الخبر ويضع الرسالة فى كنانته، حتى لا تجزع نفوس المسلمين، ولا تتضعضع عزائمهـم التى كانت قبل قليل منهارة بسبب خشيتهم من كثرة العدو. وهكذا تكون القيادة المثلى، والأخلاق الرفيعة، التى تحسن التصرف فى الأمـور، ثـم بعد انجلاء الموقف تنفذ مرسوم الخليفة بكل دقة، حتى ولو على حساب الذات.

وإنا لنعتقد أن موقفاً كهذا الذى عزل فيه **خالد** فى معمعة المعركة لو حدث اليوم أو فى أىٍّ من وقائع التاريخ الحديث، لأحدث ضجة، واختلف الجند، وانقسمت القيادة، حتى يؤدى ذلك كله إلى الانتكاس والخذلان، بل لقد كان من الممكن أن يرتد القائد المكلوم بالعزل بمن يطيعه من الجند إلى مقر رئاسة الدولة، ويحدث انقلاباً ضد من أوحى بعزله. إنما هى أخلاق الإسلام التى تجعل المسلم دؤوباً فى طاعة الله ورسوله وولى الأمر، ما دام الجميع يعملون لهدف واحد، وبروح صادقة. وإن هذا الملمح يستحيل حدوث مثله الآن.

---

(١) على حسب رواية الطبرى ٣/٤٣٤، النويرى: نهاية الأرب ١٩/١٥٤.

كما أن قصة **جرجة** هذه تستدعينا أن نذكر ما حكاه الطبرى فى تاريخه من أن **هرقل** حين وصله كتاب النبى ﷺ وهو بالشام من قبل، فى أثناء تجهزه للعودة إلى القسطنطينية، جمع الروم فقال لهم: «يامعشرالروم! إنى عارض عليكم أموراً فانظروها. قالوا: وماهى؟ قال: تعلمون والله إن هذا الرجل لنبى مرسل. إنا نجده فى كتابنا - الإنجيل - نعرفه بصفته التى وصف لنا. فهلم فلنتبعه، فتسلم لنا دنيانا وآخرتنا». فقالوا: «نحن نكون تحت أيدى العرب! ونحن أعظم ملكاً، وأكثر رجالاً، وأفضلهم بلداً؟» .قال: «فهلم فأعطيه الجزية فى كل سنة، أكسر عنى شوكته،وأستريح من حربه بمال أعطيه إياه». قالوا: «نحن نعطى العرب الذل والصغار بخراج يأخذونه منا، ونحن أكثر الناس عدداً، وأعظمهم ملكاً، وأمنعهم بلداً؟، لا والله لا نفعل هذا أبداً». قال: «فهلم فلأصالحه على أن أعطيه أرض سورية، ويدعنى وأرض الشام». فقالوا: «نحن نعطيه أرض سورية وقد عرفت أنها سرة الشام؟، والله لا نفعل ذلك أبداً». فلما أبوا عليه قال: «أما والله لترون أنكم قد ظفرتم إذا امتنعتم منه فى مدينتكم»[1] .

وجاء فى رواية أخرى أن **هرقل** فى حجه لبيت المقدس قبل واقعة اليرموك لما أتاه الخبر بقرب جنود المسلمين منه، جمع الروم وقال: «أرى من الرأى ألا تقاتلوا هؤلاء القوم، وأن تصالحوهم، فوالله لأن تعطوهم نصف ما أخرجت الشام وتأخذوا نصفاً وتقر لكم جبال الروم، خير لكم من أن يبلغوكم على الشام ويشاركوكم فى جبال الروم. فنخر أخوه، ونخر

(١) تاريخ الطبرى ٢/ ٦٥٠، ٦٥١.

ختنه، وتصدع عنه من كان حوله، فلما رآهم يعصونه ويردون عليه بعث أخاه، وأمر الأمراء، ووجه إلى كل جند جنداً....»[١] .

فلعل **هرقـل** كان قد خبر بما سيكون لنبى الإسلام ودولته من خلال كتاب النصرانية - الإنجيل- ، ومن خلال سيرة المسلمين فى شبه الجزيرة، ثم من خلال التحريات التى أجراها حينما وصله كتاب النبى ﷺ، إذ قال للملأ من حوله: انظروا لنا من قومه أحداً نسأله. فأتوا **بأبى سفيان بن حرب** الذى كان - آنذاك - فى تجارة لقريش بالشام، فلما سأل **هرقل أبا سفيان** ومن معه عن أكثرهم قرابة للنبى **محمد** ﷺ ، قال **أبو سفيان**: أنا، لأنه لم يكن فى الركب من بنى عبد مناف، غيره. فظل **هرقل** يسأل **أبا سفيان** عن نسب النبى ﷺ وشخصيته ومقولته، حتى كاد **هرقل** يدعو قومه للإيمان به واتباعه[٢] .

بهذه القصة يستدل مؤرخو العرب على ميل **هرقل** إلى الإسلام، ورغبته فى اعتناقه، ويؤيدون رأيهم بحادث آخر هو: أن **هرقل** كان قد أجاز **دحية الكلبى** سفير الرسول ﷺ إليه بمال وكساه كسى. على أن بعض المؤرخين المحدثين يميلون إلى التحفظ فى قبول هذه المسألة، ويمنعهم من قبولها ماحدث من **هرقل** من أعمال تدل على كراهيته الشديدة للمسلمين؛ فقد جيش الجيوش لمحاربتهم فى الشام وفلسطين ومصر، وغضب

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/٦٥٠.

(٢) تنظر تفاصيل القصة فى كتاب الشيخ/ محمد الخضرى: نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين، ص ١٣٧، ١٣٨ ،طبعة ثالثة، القاهرة ١٩٨٠.

على **المقوقس** واستدعاه إليه فى القسطنطينية حين علم أنه صالح المسلمين، ثم نفاه[1] .

إلا أنه من جانبنا فإنا نرى أن هذا الذى يزعمه قدامى المؤرخين من ميل **هرقل** إلى الإسلام، لابد قد دلهم عليه دليل، أو أشارت إليهم به أمارة، وإلا فمن أين جيئ بهذا الحوار الذى كان بين **هرقل** وخاصة قومه؟. لكن الذى يمكن أن نتحراه هل كان **هرقل** حقاً تميل روحه إلى الإسلام؟ أم كانت محاولة منه للتأكد من ثبات قومه على النصرانية، ومدى استعدادهم للتضحية فى سبيلها؟ أم كان سبقاً منه للأحداث، حيث أراد أن يوفر دماء شعبه بالتنازل للمسلمين عن جزء من ممتلكات الامبراطورية، يتقى به بقية ملكه، أو حتى بقبول جزية سنوية يؤديها فى مقابل حفظ مملكته؟ كل هذه التساؤلات يجب أن تدور بأذهاننا ونحن بصدد هذه المناقشة. مع أنه لا يمكن لأحد القطع بالإجابة على أيها، ما دام **هرقل** قد مات ولم يفصح عن حقيقة ما بداخله.

وكذا يحتمل ألا يكون هذا العرض من **هرقل** لخاصته قد وقع عندما تلقى كتاب النبى **محمد** ﷺ ، ولا عندما اجتمع المسلمون باليرموك – على ما يرويه الطبرى – وإنما وقع منه بعد أن حاز المسلمون أكثر نواحى الشام. فأراد أن يستبقى ما يمكنه من الإمبراطورية وتوابعها، بمحاولة التصالح مع المسلمين بأى السبل، فقام بعرض ما رأيناه على قومه، فلما عارضوه واتهموه فى دينه وخيانته للنصرانية انصرف إلى عاصمة ملكه مودعاً

---

(١) الإسلام ظهوره وانتشاره ص ٢٠١.

سورية بقوله: «السلام عليك ياسورية تسليم الوداع» ثم ركض حتى دخل القسطنطينية، وعلى هذا لا يكون قد همّ إلى الإسلام، إنما حاول الاحتفاظ بما تحت يده. والله أعلم.

ونعود بالحديث إلى وقائع معركة اليرموك فيمايصفه الطبرى بقوله: «وتضعضع الروم، ونهد **خالد** بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم، وكان مقاتلهم واسع المطرد ضيق المهرب، فلما وجدت خيلهم مذهباً ذهبت، وتركوا رجلهم - المشاة - فى مصافهم، وخرجت خيلهم تشتد بهم فى الصحراء... ولما رأى المسلمون خيل الروم توجهت للهرب أفرجوا لها ولم يحرجوها - أى لم يضيقوا عليها - فذهبت فتفرقت فى البلاد، وأقبل **خالد** والمسلمون على الرجل ففضوهم، فكأنما هدم بهم حائط، فاقتحموا فى خندقهم، فاقتحمه عليهم، فعمدوا إلى الواقوصة[1] حتى هوى فيها المقترنون وغيرهم، فمن صبر من المقترنين للقتال هوى به من خشعت به نفسه، فيهوى الواحد بالعشرة لا يطيقونه، كلما هوى اثنان كانت البقية أضعف، فتهافت فى الواقوصة عشرون ومائة ألف، ثمانون ألف مقترن، وأربعون

---

(١) الواقوصة: واد بالشام فى أرض حوان... قال القعقاع بن عمرو:

ألم تر أنا على اليرموك فزنا	كما فزنا بأيام العراق؟
قتلنا الروم حتى ما تساوى	على اليرموك مفروق الوراق
فضضنا جمعهم لما استحالوا	على الواقوصة البتر الرقاق
غداة تهافتوا فيها فصاروا	إلى أمر تعضل بالذواق

(ياقوت: معجم البلدان ٥/٣٥٤).

ألف مطلق، سوى من قتل فى المعركة من الخيل والرجال، فكان سهم الفارس يومئذ ألف وخمسمائة، وتجلل الفيقار – أحد القواد – وأشراف من أشراف الروم برانسهم، ثم جلسوا وقالوا: لا نحب أن نرى يوم السوء إذ لم نستطع أن نرى يوم السرور، وإذ لم نستطع أن نمنع النصرانية، فأصيبوا فى تزملهم»[1] .

(١) تاريخ الطبرى ٣/٤٠٠.

المبحث الخامس
فتح المسلمين لبيت المقدس وشكله الحضارى

بعد أن توالى سقوط المدن الشامية وتوابعها ومصالحة أهلها للمسلمين، لم يبق إلا بيت المقدس، تلك المدينة التى تحوى بين أركانها رموزاً ومعالم دينية للمسيحيين واليهود والمسلمين. وقد كانت للمسلمين بخاصة قبلتهم الأولى، كما كانت منتهى رحلة إسراء النبى ﷺ ، ومبدأ رحلة معراجه إلى سدرة المنتهى.

يقول **غوستاف لوبون**: «وكان المسلمون يعلقون أهمية كبيرة على فتح هذه المدينة التى كانوا يقدسونها تقديس النصارى لها، ففيها توفى المسيح الذى هو عند المسلمين من أعاظم الأنبياء، وفيها الصخرة الشهيرة التى عرج منها **محمد** فى السماء....»[(١)] .

ويروى **بتلر** أن كانت العرب – المسلمين – تسبقهم هيبتهم فتقع فى قلوب مسيحيى الشام، فكانوا يذعنون خاضعين، حتى أنه فى الليلة التى أعقبت سماع أهل إيلياء بتوجه المسلمين إليهم «أخذ أهل بيت المقدس الصليب الأعظم وكل ما فى الكنائس من الآنية، وجعلوا كل ذلك عند الساحل، ثم وضعوها فى سفينة وبعثوا بها إلى دار الملك بالقسطنطينية»[(٢)] .

---

(١) حضارة العرب ص ١١٥.

(٢) فتح العرب لمصر ص ١٤٦.

يعنى اعتبر المسيحيون أنفسهم سباقين للأحداث، فحملوا كل غال لديهم ونقلوه إلى القسطنطينية، خوفاً من أن ينتهبه المسلمون، كما انتهبه الفرس من قبل، ولكنهم سيفاجأون بأن المسلمين يحملون أسلوباً جديدا وروحاً جديدة لم ير النصارى مثلهما من قبل فى شىء، وأن المسلمين ليسوا كالفرس من قريب أو بعيد.

لكن قبل الخوض فى أحداث فتح بيت المقدس، يجب ألا ننسى ونحن ما نزال قريبى عهد بغزو الفرس للقدس - كيف كان دخول الفرس إليها، وكيف جاسوا خلال ديارها قتلاً وذبحاً وتشريداً، ثم كيف كان موقف اليهود من النصارى فى أثناء ذلك[1] ، مع أنهم معاً (اليهود والنصارى) أهل كتاب، والفرس مجوس مشركون. كل هذه الاعتبارات والمشاهد يجب أن تظل أمام أعيننا الآن، لنقيسها إن جاز القياس - بالكيفية التى دخل المسلمون عليها تلك المدينة المقدسة.

وإذا كان المسلمون بطبيعتهم يحترمون أهل البلدان الذين يبادؤونهم بالصلح، ويحفظون لهم أنفسهم وأموالهم وديارهم وكنائسهم، أفلا يكونون فى دخول القدس أشد احتراماً ومراعاة لقداستها وصيانة لأرواح أهلها؟ بلى. فهم أهل لذلك.

---

(١) فضلاً راجع موضوع الفرس فى الشام فى صفحات ٦٩ - ٨١ من الدراسة.

لقد استعصت إيلياء (القدس) أمام حصار **أبى عبيدة بن الجراح** وجند المسلمين معه[1] ، فلما أدرك أهلها أن المسلمين سيدخلونها لا محالة طلبوا من **أبى عبيدة** أن يكون المصالح لهم هو أمير المؤمنين **عمر بن الخطاب** بنفسه، ورأى **أبو عبيدة** أنه مطلب عادل، لما للمدينة من الأهمية والروحانية ما يستحق ذلك، ولولا هذا فإنه ما الداعى إلى أن يظل **أبو عبيدة** متعطلاً بجنده أمام أسوار المدينة منتظرا مجىء الخليفة، غير أنه الوفاء لا أكثر ولا أقل. حيث لا يمتنع على تلك القوات التى قهرت الروم فى اليرموك، وفتحت أكثر بلاد الشام وفلسطين أن تفتح بيت المقدس. وكلمة «استعصت» هذه نظنها من تأويل الغربيين والمحدثين؛ لأن واقع الحال يؤكد أن المسلمين فى أثناء حصارهم للمدينة، طُلب إليهم أن يكون الصلح بين يدى الخليفة، فوفى لهم **أبو عبيدة** ما طلبوه، تاركاً مسألة فتحها بالقوة.

---

(١) هذا هو المشهور فى فتح المسلمين لبيت المقدس. غير أن ابن الأثير يورد رواية أخرى، مؤداها أن عمرو بن العاص هو الذى تولى فتحها، وذلك بعد أن فتح «غزة» و«سبسطية» و«نابلس» و«اللد» و«تبنى» و«عمواس» و«بيت جبرين» و«مرج عيون». فلما تم له ذلك أرسل إلى أرطبون فى بيت المقدس رجلاً يتكلم بالرومية، وقال: اسمع ما يقول، وكتب معه كتاباً. فوصل الرسول، ودفع الكتاب إلى أرطبون وعنده وزراؤه، فقال: لا يفتح والله عمرو شيئا من فلسطين بعد أجنادين. فقالوا له: من أين علمت هذا؟ قال: صاحبها رجل صفته كذا وكذا، وذكر صفة عمر، فرجع الرسول إلى عمرو فأخبره الخبر، فكتب إلى عمر بن الخطاب يقول: إنى أعالج عدواً شديداً وبلاداً قد ادخرت لك. فرأيك. فعلم عمر أن عمراً لم يقل ذلك إلا بشىء سمعه، فسار عمر عن المدينة. (الكامل ٢/٣٤٨).

فلعل مرد هذه الرواية إلى أن عمراً كان المتولى لفتح فلسطين، فلما حاصر بيت المقدس وتأبت عليه جاءه أبو عبيدة القائد العام منذ اليرموك بمن معه فسانده فى حصارها، ثم أرسل بعدها إلى الخليفة بعدما طلب منه أهل إيلياء ذلك.

ولم يتوان الخليفة فى الخروج إلى الشام، فاستخلف على المدينة المنورة **علياً بن أبى طالب** الذى أشار عليه قائلاً: أين تخرج بنفسك؟ إنك تريد عدواً كلباً[١] . فقال له **عمر**: أبادر بالجهاد قبل موت **أبى العباس**، إنكم لو فقدتم **العباس** لانتقض بكم الشر كما ينتقض الحبل[٢] .

وخرج **عمر** قاصداً فلسطين، فى مظهر يحمل كل معانى التواضع والزهد، لو تصورناه لملك من ملوك تلك الأيام أوما بعدها لرأينا استعداداً عسكرياً وشكلياً، وزينة وأبهة، كيما يقع فى نفوس الناس قبل أن تقع أسيافه على رقابهم. غير أن هذا ليس من أخلاق أصحاب رسول الله ﷺ ، الذين تربوا على يديه، وورثوا عبء التبليغ وصيانة الدعوة من بعده.

لقد ارتحل الخليفة على فرس[٣] ، وكان أشعث أغبر خشن الملبس والهيئة، «حتى اقتحمته عيون مترفى الروم»[٤] ، لشدة البساطة التى رأوه عليها، ووصل إلى الجابية[٥] ، فوفد عليه قواد جنده - **يزيدوأبوعبيدة**

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٢/٣٤٨، وقد روى اليعقوبى أن عمر قد استخلف عثمان بن عفان وليس علياً. (تاريخ اليعقوبى ٢/١٤٧).

(٢) لعل عمر هنا يقصد التيمن بوجود العباس الذى استسقوا به فسقاهم الله، ينظر الكامل فى التاريخ ٢/ ٣٩٠.

(٣) يرى البعض أنه ارتحل على بعير، والبعض على أنه ركب حماراً، وعلى كل فهى وسيلة العصر إذ ذاك، ولا فرق بين أن يركب جملاً أو فرساً أو حماراً، إنما الملحوظ أنه لم يصطحب حاشية ولا حراسة، ولم يهتم بالزينة والأبهة، كما هى عادة الملوك.

(٤) بتلر: فتح العرب لمصر ١/١٤٨.

(٥) الجابية: كانت قرية من أعمال دمشق، من ناحية الجولان، قرب مرج الصفر، وبدمشق باب يسمى «باب الجابية» نسبة إليها.... (ياقوت : معجم البلدان ٢/ ٩١).

وخالد – على الخيول بالديباج والحرير، حتى أغضبه ما رآهم عليه من اللباس والزينة، فنزل فأخذ حجارة ورماهم بها، وقال: ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم، إياى تستقبلون فى هذا الزى؟ وإنما شبعتم مذ سنتين! وبالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين لاستبدلت بكم غيركم، فقالوا: يا أمير المؤمنين. إنها يلامقة[1] ، وإن علينا السلاح. قال: فنعم. إذن.

ومن ثم كان تعليق **رنسيمان** وقوله: «ومع أن الجيش الذى قاده – أى **عمر**– كان خشناً، فإنه بلغ الاكتمال فى نظامه»[2] .

وبينما كان **عمر** يقيم بالجابية، أتاه وفد بيت المقدس، على رأسهم **صفرونيوس** بطريقها الأرثوذكسى، الذى لقب بـ« صاحب اللسان المعسول فى الدفاع عن الدين»[3] .

فلما رآهم المسلمون فزعوا فلبسوا السلاح، فقال لهم **عمر**: ما شأنكم؟ فقالوا: ألا ترى إلى الخيل والسيوف؟ فنظر فإذا كردوس يلمعون بالسيوف، فقال: مستأمنة فلا تراعوا، فأمنوهم.

وكتب **عمر** كتاب الأمان والصلح الذى جاء فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب كتبه **عمر بن الخطاب** لأهل بيت المقدس. إنكم آمنون على دمائكم وأموالكم وكنائسكم لا تسكن ولا تخرب، إلا أن تحدثوا حدثاً عاماً، وأشهد شهوداً[4] كان منهم رجل يهودى التقى به **عمر** أول قدومه

---

(١) أى أقبية محشوة.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية ١/١٧.

(٣) بتلر: فتح العرب لمصر ١/١٤٨.

(٤) تاريخ اليعقوبى ٢/١٤٧، ابن بطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ٢/١٧.

الجابية. فقال له: يا أمير المؤمنين. إنك لا ترجع إلى بلادك حتى يفتح الله عليك إيلياء»[1] .

وبهذا تكون بيت المقدس قد فتحت قبل أن يدخلها جندى مسلم، وأمن أهلها على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم، دون أن تراق نقطة من دم، ودون أن تهدم كنيسة أو بيت. أليس الفارق كبيراً وعجيباً أيضاً إذا ما قسناغزو الفرس بفتح المسلمين؟! ألا ما أبهى وضوح الإسلام، وما أعدل أحكامه، وما أرأف أتباعه!.

ثم يتوجه الجميع – مسلمون ونصارى – إلى المدينة – بيت المقدس الآمنة المستأمنة، وما يزال عمر فى بساطته وتواضع مظهره، رافضاً كل محاولات قواده الذين ألحوا عليه بتغيير مظهره بما يتمشى مع عادات الروم. وقد أجاد حافظ إبراهيم فى تصويره لهذا المشهد العمرى إذ يقول:

ماذا رأيت بباب الشام حين رأوا	أن يلبسوك من الأثواب زاهيها
ويركبوك على البرذون تقدمه	خيل مطهمة تحلو مرائيها
مشى فهملج مختالا براكبه	وفي البراذين ما تزهى بعاليها
فصحت يا قوم كاد الزهو يقتلني	وداخلتني حال لست أدريها
ردوا ركابي، فلا أبغي به بدلا	ردوا ثيابي، فحسبي اليوم باليها[2]

وتفتح المدينة أبوابها مرحبة بشريعة الإسلام الغراء، التى صانتها من العبث، وأنقذت أهلها من التقتيل والتشريد، وحفظت مقدساتها، «فلم يرد

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٢/٣٤٩.

(٢) أحمد إبراهيم الشريف (الدكتور): الفتوح الكبرى فى عهد عمر بن الخطاب، ص ١٠٦ بحث منشور فى مجلة منبر الإسلام، رجب ١٣٨٥هـ - أكتوبر ١٩٦٥م.

عمر أن يدخل مدينة القدس معه غير عدد قليل من أصحابه[(١)] ، حتى لا يروع أهلها، ثم طلب من البطريق «**صفرونيوس**» أن يصحبه فى جولة إلى الأماكن المقدسة فيها، فصحبه البطرك إلى كنيسة القيامة، أقدم كنائس الشرق، فتجولا فيها حتى إذا كان وقت الصلاة استأذن **عمر** للصلاة، ففرش له البطرك بسطاً فى صحن الكنيسة وقال: صل ههنا. فقال **عمر**: ليس ههنا أصلى، ثم خرج إلى درجة على باب الكنيسة، فصلى ثم جلس، فقال **لصفرونيوس**: أتعلم لماذا لم أصل داخل كنيستكم؟، فقال: لا أعلم ذلك، فقال له **عمر**: لو صليت بداخلها لقال المسلمون من بعدى: ههنا صلى الخليفة، وربما حولوها مسجداً، فتضيع بذلك منك[(٢)] .

ثم لا يفوت **عمر** الخليفة أن ينبه على أصحابه أمام البطرك المسيحى أن لا يؤذنوا على هذه الدرجة، ولا يصلوا عليها جماعة[(٣)] ، ويصر على ألا يدع الأمر شائعاً، فيسأل البطرك قائلاً: دلنى على مكان نبنى عليه مسجداً، حتى لا ينصرف دون أن يتخذ للمسلمين مسجداً، وحتى يختص كل فريق بدور عبادته ولا يتعدى المسلمون على الكنيسة من بعد رحيله.

---

(١) غوستاف لوبون: حضارة العرب ص ١٣٤ .

(٢) سعيد بن بطريق: التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ٢/١٧ ، غوستاف لوبون: حضارة العرب ص ١٣٥ ، ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ١/١٨ ، سيديو: تاريخ العرب العام ص ١٢٢ .

(٣) سعيد بن بطريق: نفس المرجع ص ١٧ ، د. أحمد الشريف: الفتوح الكبرى فى عهد الفاروق ص ١٠٦ .

وفى صدد فتح المسلمين للقدس بهذا الشكل الإنسانى الرائع، والروح الإسلامية الرقيقة التى جعلت المسلمين يتسامون فوق غدرات الفرس ونكايات اليهود فى القدس من قبل، ينقلنا **«غوستاف لوبون»** إلى ما بعد ذلك بخمسة قرون؛ حين بدأت الحروب الصليبية، ودخل الصليبيون أنفسهم القدس، ليسجل بذلك مشهداً يقيسه على ما سجله فى دخول المسلمين إليها، فيجد الفرق شاسعاً، لدرجة يستبعد معها القياس، فها هو يقول: «ويثبت لنا سلوك أمير المؤمنين **عمر بن الخطاب** فى مدينة القدس مقدارالرفق العظيم الذى كان يعامل به العرب الفاتحون الأمم المغلوبة، والذى ناقضه ما اقترفه الصليبيون فى القدس بعد بضعة قرون مناقضة تامة[(١)] ، فلم يرد **عمر** أن يدخل مدينة القدس معه غير عدد قليل من أصحابه، وطلب من البطرك **صفرونيوس** أن يرافقه فى زيارته لجميع الأماكن المقدسة، وأعطى أهلها الأمان، وقطع لهم عهداً باحترام كنائسهم وأموالهم، وبتحريم العبادة على المسلمين فى بيعهم...»[(٢)] ، ويضيف **«سيديو»** فى هذا الصدد قوله: «... ويبدى **عمر** فى دخوله القدس من البساطة والكرم الشىء الكثير، وينال سكان إيلياء حرية الضمير كاملة، وتحترم كنائسهم،....»[(٣)] .

ويمكننا هنا أن نستشهد بإحدى وقائع الصليبيين فى القدس، لنرى الفرق الشاسع بين جرائمهم فيها وبين الأسلوب الإسلامى السمح الرفيع الذى دخل به المسلمون القدس. فحينما شدد الصليبيون فى الحملة الثانية

---

(١) حضارة العرب ص ١٣٥.

(٢) حضارة العرب ص ١٣٥.

(٣) تاريخ العرب العام ص ١٢٢.

حصارهم حول القدس، «ورأى أهلها أنهم مغلوبون لا محالة، طلبوا من قائد الحملة «تانكرد» الأمان على أنفسهم وأموالهم، فأعطاهم رايته، يرفعونها على المسجد الأقصى، ويلجأون إليه آمنين على كل شيء، ودخل الصليبيون القدس بعد ذلك، فيا لهول المجزرة، وياالقسوة الإجرام!..

لجأ سكان القدس إلى المسجد الأقصى الذى رفعوا فوقه راية الأمان حتى إذا امتلأ بمن فيه من شيوخ وأطفال ونساء، ذُبحوا ذبح النعاج، فسالت الدماء فى المعبد حتى ارتفعت إلى ركبة الفارس، وطهرت المدينة بذبح كل من فيها تماماً، حتى كانت شوارعها تعج بالجماجم المحطمة، والأذرع والأرجل المقطعة، والأجسام المشوهة.

ويذكر مؤرخونا أن عدد الذين ذبحوا فى داخل المسجد الأقصى فقط سبعين ألفا! منهم جماعة كبيرة من الأئمة والعباد والزهاد، فضلاً عن النساء والأطفال. ولا ينكر مؤرخوا الفرنج هذه الفظائع، وكثير منهم يتحدثون عنها فخورين»[1] .

فها هو **ستيفن رنسيمان** يحكى عن تلك المذبحة، فيقول: «... إذ أن الصليبيين وقد زاد فى جنونهم ما أحرزوه من نصر كبير بعد شقاء وعناء شديد، انطلقوا فى شوارع المدينة، وإلى الدور والمساجد، يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والنساء والأطفال دون تمييز. واستمرت المذبحة طوال مساء ذلك اليوم وطوال الليل، ولم يكن علَم **تانكرد** عاصماً للاجئين

---

(١) الشيخ مصطفى السباعى (الدكتور): من روائع حضارتنا ص ١٠٣، ١٠٤ ،طبعة رابعة، بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

إلى المسجد الأقصى من القتل، ففى الصباح الباكر من اليوم التالى اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين فأجهزت على جميع من بقى من اللاجئين. وحينما توجه **(ريموندآجيل)** فى الضحى لزيارة ساحة المعبد، أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التى بلغت ركبتيه»[١] .

إلا أنه رغم كل هذا الرفق والتسامح الإسلاميين مع سكان القدس نرى **صفرونيوس** فى أثناء تجواله مع الخليفة **عمر** فى الأماكن المقدسة بها، يلتفت إلى أصحابه، ويقول لهم باليونانية: «حقاً إن هذا هو الرجس الآتى من القفر الذى ذكره النبى **دانيال**»[٢] ! فإنه لمن العجب حقاً أن يصف بطرك بيت المقدس دخول الإسلام والمسلمين القدس - على هذا الشكل الذى لم يجرؤ أحد من المؤرخين الغربيين أنفسهم أن يتطاول عليه بأنه رجس وخراب. حتى وإن ادعوا أن ذلك قد ورد فى إنجيل متى[٣] ، فهو تزيد مردود لا يمكن أن يكون له فى الإنجيل الأصيل شبه وجود؛ بدليل أن **عيسى** عليه السلام كان يعرف خبر **محمد** وأخبر قومه بمجيئه، كما أن كتب السماء يعضد بعضها بعضا، ويشير السابق منها للاحق، كما يؤكد اللاحق السابق. وهنا نسأل: إذا كان دخول المسلمين القدس على هذه الكيفية رجس وخراب فكيف كان دخول الفرس؟ ثم كيف كان دخول

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ٤٢٦/١، وقد نقل ستيفن رنسيمان كلامه هذا عن مؤرخين غربيين هما: Raymond of Aguiler sxx.p.3.6.
Gesta Francorum x.8. 204-206.

(٢) بتلر: فتح العرب لمصر ١٤٨/١، ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ١٧/١.

(٣) الإصحاح الرابع، الآية الخامسة عشر.

الصليبيين أنفسهم فيما بعد؟! أهى تعمية للحقائق يدفع بها الحقد البغيض على الإسلام؟، أم كانت نخرة من **صفرونيوس** يقصد بها إظهار يقينه، وتأكيد انتمائه الأرثوذكسى أمام مواطنيه؟، أم كانت تعزية منه لأهل ملته؟ وربما كان كل ذلك.

ولم يقتصر المسلمون فى إظهارتسامحهم على سكان القدس، بل أبدوا تسامحاً مثله تجاه سائر المدن الشامية الأخرى، ولم يلبث جميع السكان أن رضوا بسيادة المسلمين، واعتنق أكثر أولئك السكان الإسلام بدلاً من النصرانية، وأقبلوا على تعلم اللغة العربية، وظل الشام إقليما عربياً إسلامياً، مع تداول كثير من الفاتحين عليه بعد ذلك[1] . وقد يكون من الغريب أن يرحب أهل الشام بالمسلمين ويعتنقون الإسلام وهم أهل حضارة روما وبيزنطة منذ سبعمائة سنة، إلا أنه يُسْر الإسلام، ووضوح مبادئه العادلة، كما أنه دليل على أن حضارة السبعمائة سنة ما كانت إلا حضارة فارغة وخاوية، لم تنتج فكراً ولاعقيدة راسخة يمكن للأهالى التمسك بها والزود عنها.

وهكذا خلصت بلاد الشام وفلسطين لحكم المسلمين، ودالت دولة الروم بهما، وأزيح عن كواهل السكان كابوس القهر والتعنت والعسف الذى سلط عيهم زمناً طويلاً، واستردت سورية فى أيام الحكم الإسلامى ما أضاعته من الرخاء منذ زمن طويل، وبلغت درجة رفعية من الرقى فى العصر الأموى والصدر الأول من العصر العباسى، وكان العدل بين الرعية دستور

---

(١) حضارة العرب ص ١٥١.

المسلمين السياسى، فترك المسلمون الناس أحراراً فى أمور دينهم، وأظل المسلمون أساقفة الروم ومطارنة اللاتين بحمايتهم، فنال هؤلاء مالم يعرفوه سابقاً من الدعة والطمأنينة، وبلغت الزراعة والصناعة درجة رفيعة وازدهرت بسرعة كبريات المدن السورية كالقدس وصور وصيدا ودمشق... وقد جد العرب فى دراسة كتب اليونان والرومان مثلما جدوا فى ميادين القتال، وأنشأوا المدارس فى كل مكان، وصاروا أساتذة من فورهم بعد أن كانوا تلاميذ، وأنهضوا العلوم والشعر والفنون الجميلة أيما إنهاض[١] .

---

(١) غوستاف لوبون: حضارة العرب ص ١٥٣ .

الفصل الثالث

فتح المسلمين لمصر
وأبعاده الحضارية

المبحث الأول
الـــروم فــــى مصــــر

كانت مصر مهداً للمدينة القديمة، ووارثة لحضارة قدماء المصريين واليونان والرومان، وكانت الإسكندرية مجمع المذاهب الفلسفية والطوائف الدينية، وملتقى الآراء الشرقية والغربية، وكان يسكنها الأقباط[١] «المصريون» ومزيج من أمم أخرى كاليهود والرومان[٢] ، وكان الفساد الذى حل بحكومة بيزنطة أحياناً كثيرة يضرب بآثاره البالغة فى مصر، وبخاصة فى السنوات التى سبقت عملية الفتوحات الإسلامية، بل كانت دولة الروم كلها تأخذ طريقها إلى الزوال منذ حكم **فوكاس** الجائر القائم على جيش فاسد تدعمه عصبة فاسدة من الأشراف، حكم تتناقص هيبته وقوته كلما بعدت عن قصبته ميلا فميلا[٣] ، فقد سلط على أنحاء الدولة سوط عذاب من الحكم السيء، حتى أصبحت أقل بلادها عذاباً تلك الأقاليم التى تستعر فيها الحرب مع الفرس أو همج الشمال.

---

(١) صار من الشائع إطلاق لفظ «القبط» على النصارى بمصر، وهو شيوع خاطيء،فكلمة «قبط» تطلق على سكان مصر زمن الفتح الإسلامى وذلك مرجعه إلى أن مصر منذ العصراليونانى كانت تسمى «إيجوبتوس» وهى لفظة مشتقة من كلمة مصرية هى «آجبى»، ومن «إيجوبتوس» اشتقت اللغات الأوربية الكلمات التى تعبر بها عن مصر مثل Egypt أو Egitto أو Agypten، وقد ظهرت كلمة «إيجوبتوس» قبل ميلاد المسيح بعدة قرون، مما يرجح أن كلمة «القبط» اشتقت لغويا منها.
راجع. د/ سيدة كاشف: مصر الإسلامية وأهل الذمة ص ٢٨ . ومن ثم كانت كلمة قبط تعنى الجنس لا الدين.

(٢) أحمد أمين: فجر الإسلام ص ٨٥.

(٣) بتلر: فتح العرب لمصر ١/٣.

وفى عموم تاريخ مصر فى تلك الفترة، لم يكن فى بلاد الدولة الرومانية ماهو أشقى حالاً من مصر[١]، منذ سعى **جستنيان** لإجبار القبط على مذهب الدولة «الأرثوذكسى» وإدخالهم فيه، فى حين كانت امرأته «**تيودورا**» من جانب آخر تعمل لإفساد سعيه حيث هى تخالفه فى المذهب. فتمخض عن سياسة **جستنيان** هذه أن استعر الكفاح المرير بين «الملكانيين» و«المونوفيسيين»، ولم يكن عند أقباط مصر هم أكبرمنه يلمأ قلوبهم ويملك عليهم آمالهم، فلم يكن عجباً – على ذلك – أن يسمع صليل السلاح بين حين وحين فى مدينة الإسكندرية نفسها، وأن تمتلىء أرض صعيد مصر بعصابات اللصوص وقطاع الطرق، ويغزو أكنافها البدو وأهل النوبة، بل لم يكن عجباً أن تضطرب الأحوال فى مصر السفلى، فتصبح ميداناً للشغب، وتثور بها فتن بين الطوائف، توشك أن تكون حرباً أهلية[٢].

وقد كان اختيار **هرقل للمقوقس** والياً على مصر لتنفيذ ما أراده من إرغام القبط على قبول مذهب التوفيق كارثة شديدة، إذ اشتط **المقوقس** فى ذلك، وقسا على القبط حتى كرهوه، بل كرهوا الإمبراطورية، ومالوا إلى التقارب مع المسلمين حين الفتح.

هذا من الناحية الدينية، وأما من الناحية المادية وما تبعها من نواح أخلاقية واجتماعية، فإن حكم الروم فى مصر لم يكن يختلف عن حكمهم فى سائر الولايات الأخرى، فقد كان كل ما يهم القياصرة هو أن تخضع البلدان لسيادتهم، وتدين الشعوب لهم بالولاء، وتستوفى منهم الأموال التى

---

(١) يُنظر: فتح العرب لمصر ٣/١.

(٢) المرجع السابق والصحيفة.

تتيح للقياصرة عيشاً مترفاً رغداً، حيث استحوذت عليهم حياة البذخ، وطغى عليهم بحر المدنية المصطنع، والحياة المزورة، وغرقوا فيه إلى أذقانهم[١] .

فلم تكن الأمم والولايات إلا خادمة لمصلحة الإمبراطورية، تمثل عروقاً يجرى منها الدم إلى مركزها. تستهين الدولة فى سبيل ذلك بكل حق ومبدأ، وتدوس كل شرف وكرامة، وتستحل كل ظلم وشنيعة، ولا يمنع بلاداً من هذا الحيف والظلم اشتراك فى دين وعقيدة، ولا إخلاص ووفاء للإمبراطورية.

وهكذا أصبحت أمور الدين فى مصر أكبر خطراً عند الناس من كل أمور الدنيا الأخرى، حتى لقد صار ينطبق على مصر المسيحية قول الشاعر(**جوفنال**) إذ يصف ما كان بين قومه من النزاع والشقاق على أيها أفضل فى العبادة: عبادة التماسيح أم عبادة القطط، فقالك «كل مكان يكره الآلهة التى لجيرانه ويعتقد أن الآلهة الحقيقية هى التى يعبدها هو»[٢] .

وأما من الناحية السياسية، فإن حكومة البيزنطيين فى مصر لم يكن لها إلا غرض واحد، هو ابتزازالأموال من الرعية بكل طريق، لتمتلىء خزائن السادة والأباطرة، بحيث أصبح الحكم البيزنطى فى مصر لا يعنيه إلا تحقيق هدفين اثنين: أن تكون اليد العليا بين الأقباط لمذهب الدولة، وأن يجمعوا المال لتمتلىء به خزائن الإمبراطور وخاصته، مما جعل البلاد تضج بالشكوى، وترحب بأى قادم جديد، رومانى كان مثلما حدث عندما

---

(١) الندوى: نفس المرجع ص ٦٣.

(٢) بتلر: فتح العرب لمصر ١/٣.

دخلها «نيقتاس» شريك **هرقل** فى الثورة على **فوكاس**، أو فارسى، كما كان حين زحف الفرس إليها بعد استيلائهم على الشام، فى بعض الروايات، أو إسلامى، مثلماحدث عندما دخلها المسلمون.

وحتى بعد أن حكم **هرقل**، وعمل كل ما وسعه لتضييق هوة الخلاف بين الفرق الدينية المتناحرة، وحاول حسم الخلاف بكل الطرق، فإنه أخفق فى ذلك، حتى طلب إلى الجميع أن يقروا بأن الله له إرادة واحدة، وهم أحرار فيماوراء ذلك، وفرض ذلك بقانون نشره فى أنحاء الإمبراطورية، وألزم الناس به، ولكن ذلك لم ينه الخلاف، ولم يقنع أهل مصر، فاشتبكا معاً فى صراع دام حوالى عشرة أعوام، لقى خلالها أهل مصر من البلاء ما تقشعر منه الأبدان.

وعلى الرغم من تلك الفتن التى نجمت عن الخلافات المذهبية، فقد تضاعفت الضرائب والإتاوات، وانتشر الفساد واستشرى، فيقول **جيبون**: «وفى أواخر القرن السادس الميلادى وصلت الدولة البيزنطية فىترديها وانحدارها إلى آخر نقطة، وكان مثلها كمثل دوحة عظيمة كانت أمم العالم فى وقت من الأوقات تستظل بظلها الوارف، ولم يبق فيها إلا الجذع الذى لا يزداد كل يوم إلا ذبولاً»[1] .

كما قال مؤرخون آخرون: «إن المدن العظيمة التى أسرع إليها الخراب ولم تسترد مجدها وزهرتها أبداً، تشهد بما أصاب الدولة البيزنطية فى هذا العهد من الانحطاط الهائل الذى كانت نتيجته المغالاة فى المكوس

(١) عبد الحميد بخيت (الدكتور): ظهور الإسلام وسيادة مبادئه، ص ١٢، «الطبعة الثانية» القاهرة ١٩٦٧م.

والضرائب والانحطاط فى التجارة، وإهمال الزراعة، وتناقص العمران فى البلدان». وقول **وليم لانجر**: «وفى خلال القرنين الخامس والسادس، مزقت المونوفيسية أوصال الكنيسة الشرقية، وهى الهرطقة التى يدين بها أتباع الطبيعة الواحدة للمسيح، أما الأرثوذكسية التى ترى أن المسيح يجمع بين الطبيعة الإلهية والطبيعة البشرية، فأيدها **ليو**، بابا روما، ووافق عليها مجمع خلقيدونيا (٤٥١م)، لكن أباطرة الشرق بوجه عام كانوا يدينون بالمونوفيسية. أما فى الغرب، حيث ضعف النفوذ الإمبراطورى، وآلت الأسقفيات المتنافسة إلى المتبربرين، فقد ظفر أسقف روما - أو بابا روما كما سمى فيما بعد - بالسلطة العليا، وأصبح كبار الباباوات زعماء روحيين ودنيويين لشعوبهم»[١] .

ومما يصف هذه الحالة من التمزق المذهبى والاختلاف العقائدى، قول القمص **صموئيل تاوضروس السريانى**[٢] : قاست مصر فى عهد الاحتلال الرومانى كثيراً من أنواع المظالم الدينية والتفرقة المذهبية البغيضة، فكان ولاتها يعملون على توسيع شقة الخلاف بين الوثنيين ومواطنيهم من النصارى[٣] ، فمنحوا الحقوق الكاملة والامتيازات الرفيعة لمن يدينون بدين الدولة ويسجدون لأصنامها الوضيعة، كما قصروا عليهم المناصب الرئيسية فى الجيش والإدارة، وفى المقابل يضيقون على المخالفين، ويغلقون سبل العيش فى وجوههم، ويرهقونهم بالضرائب

---

(١) د. عبد الحميد بخيت: ظهور الإسلام وسيادة مبادئه ص ١٣.

(٢) الأديرة المصرية العامرة ص ٧. (طبعة أولى) القاهرة ١٩٦٨م.

(٣) واضح من هذا القول وغيره أن الفرق المسيحية كانت تكفر بعضها بعضاً.

الفادحة، ويعتبرون دينهم جريمة يعاقب عليها القانون، ويقدمونهم للمحاكمة لأى تهمة حتى ولو كانت باطلة. لهذا سئم المؤمنون الحياة بين عبدة القياصرة وعافت أنفسهم مناظر الفجور والخلاعة التى كانت تجرى بين هياكل الزهرة، وتحت قباب باخوس إله المسكرات، وانطلقوا - أى الرهبان - إلى البرارى يطلبون الخلاص لأنفسهم، وينشدون حياة أفضل.

فكان أول من لجأ إلى البرية من النصارى هو **القديس بولس** الإسكندرى (٢٢٨ - ٣٤٣م) الذى اختار الصحراء الشرقية لبعدها عن الحاكم الفاسق، وقد ازداد عدد الأديرة فى المناطق الممتدة من الإسكندرية إلى جنوب وادى النطرون، وكثر الرهبان الذين كانوا يقطنون فى المغائر وشقوق الأرض، حتى إن الفرس عندما أغاروا على البلاد سنة ٦١٤م خربوا للأرثوذكسيين فى العاصمة وضواحيها ستمائة دير كانت عامرة بالرهبان والراهبات، ولكن هذه الأديرة عادت فتجددت وعمرت مرة أخرى، وزحفت الرهبنة من شيهيت إلى الأقاليم الجنوبية. فيذكر أسقف الأشمونين فى سيرة البابا **خائيل** الأول أن الأنبا **أبرام** أسقف الفيوم الذى عاصر هذا البطريرك، كان يرأس فى بلاده خمسة وثلاثين ديراً عامرة بالرهبان. كما يقول المؤرخون أن الأنبا **صموئيل المعترف** بعد أن غادر وادى النطرون هرباً من وجه رجال القيصر توجه إلى جبل القلمون، وأسس هناك رهبنته المعروفة[1] .

---

(١) الأديرة المصرية العامرة ص ٧٥.

وهكذا يتضح لنا أن الخلاف الدينى والتفرق المذهبى فى دولة الروم قد امتد أثره إلى سائر الولايات التى تتبع القسطنطينية، وأصبح هم الحكومة فى هذه الولايات – متمثلة فى الولاة ورجال الإدارة والجند – منصرفاً إلى إجبار الرعايا على مخالفة دينهم إلى دين سادتهم «الملكانى» يساقون إلى ذلك سوقاً من خلال الجبايات الظالمة والتهم الباطلة، والضغوط المختلفة والمتلاحقة، وعمت تلك الحال مصر كلها، حتى الفيافى والقفار التى انزوى فيها الرهبان والنساك، لدرجة أن لم ينج الوادى (النطرون) لبعده الساحق من مساوئ الحاكم الظالم، كما لم يحرم أيضاً من عدالته! ففى العصر البيزنطى المسيحى بطش **لوسيوس** البطريرك الأريوسى الدخيل برهبان البرية الذين رفضوا مبادئه الوخيمة، كما عمل **كيروس** الأسقف الخلكيدونى على التنكيل بالرهبان الذين أعرضوا عن سماع **طومس لاون** البغيض، وبينما كان قياصرة القسطنطينية يشجعون عمالهم على ارتكاب مثل هذه المعاصى كان الإمبراطور **باسليكوس** (٤٧٥ – ٤٧٧م) معتدلاً، **وزينون** (٤٧٧ – ٤٩١م) الملك البار يغمر بهباته العريضة كل أديرة وادى النطرون، وخاصة دير القديس **مكاريوس**»[(١)] .

على أن فترات العدالة هذه التى يشير إليها المؤلف كانت متقطعة ويسيرة لا تكاد تشتمل سوى بضع سنوات أو بضع عقود فى خلال هذه القرون الطويلة، كما أن فترات العدالة هذه التى شهدها العصر تبعا لتولى بعض الأباطرة المعتدلين، تدلل على أن المنهج السياسى للامبراطورية لم

---

(١) صموئيل تاوضروس السريانى: الأديرة المصرية العامرة ص ٩١.

يكن ثابتاً، بل اعتراه التفاوت الظاهر، حسب ميول وأهواء ومذهب كل امبراطور، وحسب قوة بطش ولاته وعماله وأتباعه فى سائر الولايات.

وأنه لمن الجدير هنا أن نلمح إلى ثنتين من الحقائق التى تمثل نكاتاً ظاهرة فى تاريخ المسيحية فى مصر حتى الآن:

الأولـــى: أن الروم الملكانيون استولوا على كنيسة مريوط والدير الملحق بها بعد الانشقاق الخلكيدونى، وزارها من أقطابهم **الأنبا صفرونيوس** أسقف بيت المقدس (٦٣٤ – ٦٤٢م)، ووصفها كأجمل كنيسة فى الصحراء الليبية، كما قصدها **يوحنا الرحوم**[١] ، بطريرك الإسكندرية اليونانى (٦٠٨ – ٦٢٥م)، الذى عندما تذوق النبيذ[٢] المحلى الذى يصنعه الرهبان، أنحى باللائمة عليهم، لأنهم لم يقدموا له منه حال وصوله[٣] !!.

---

(١) **حنا الرحوم**: هو مطران الإسكندرية حال وقوع الشام فى قبضة الفرس، وكانت الإسكندرية إذ ذاك ملجأ لكل من يفلت من بطش الفرس «كما تلجأ السفينة إلى الرفأ الذى لا موج فيه» حيث كان حنا الرحوم ذلك البطريق الطاهر يطعم الطعام للمساكين، ويبنى الملاجئ والمستشفيات للمرضى والجرحى، حتى عم إحسانه الأغنياء والفقراء... ولم يكن بره مقصوراً على مصر، كما لم يكن معناه إطعام الجائعين فقط، بل إنه حين سقطت بيت المقدس فى أيدى الفرس ونهبوها ودمروها بذل فى سبيل إعادة كنائسها إلى سابق عدها ما يقال إنه بلغ ألف عدل من القمح والخضر، وألف بغل، وألف سفينة من السمك المملح، وألف خابية من الخمر! وألف رطـل مـن الحديـد، وألـف صـانع، وكتب إلى «مودستوس» الحـاكم الدينـى والدنيـوى فـى بيت المقـدس – آنـذاك –: «أعتذر إليـك أنـى لا أسـتطيع أن أرسـل شيئاً جديراً بكنائـس المسيح، وما كان أحب إلىَّ أن أجيئ فأعمل بيدى فى بناء كنيسة القيامة»... إلخ (فتح العرب لمصر ١/ ٦٠).

(٢) لست أدرى ما المقصود بالنبيذ هنا! أهو الشراب المعتق المُسكر الذى لا يقره دين؟، ولا أعلم أن الاسم ينصرف إلى شيء آخر غيره. أم هو نوع آخر من الشراب يطلق عليه اسم «النبيذ»؟ مجرد سؤال.

(٣) صموئيل تاوضروس السريانى: الأديرة المصرية العامرة ص ٢٤٢.

أما الحقيقة الثانية ، فهى أنه «عندما تغيرالوضع السياسى بدخول العرب استرد نصارى القبط كنيسة «مارمينا» - هذه - والدير الملحق بها من أيدى البيزنطيين الذين اغتصبوها أكثر من مرة»[١] .

هذا، وقد عقد **بتلر** فى كتابه «فتح العرب لمصر» مبحثاً خاصاً أسماه: «الاضطهاد الأعظم للقبط على يد **قيرس**» أى فى السنوات العشر الأخيرة من حكم الروم لمصر، عدد فيه أوجه وأشكال النكال والتعذيب التى لحقت بالمصريين من جراء مخالفتهم لمذهب الروم، وساق العديد من القصص التى يندى لها جبين أى متدين، بل وأى إنسان، ثم أورد خلاصته التى يقول فيها:

«وقد أوردنا هذه القصص جميعها لكى ندلل بها دلالة واضحة على شدة الاضطهاد وعنفه، وإنه ليخيل للإنسان أنه من المستبعد أن يبقى مثل هذا الاضطهاد عشر سنوات، ولكن هذا هو الحق الذى لا مراء فيه، فقد جاء فى ديوان «**حنا النقيوسى**» ما يأتى: «وظل قيرس (المقوس) إلى ما بعد موت **هرقل** عندما جاء إلى مصر، لم يذهب عنه حقده على عباد الله، ولم يمتنع عن اضطهادهم، بل زاد قسوة على قسوة» . وقد جاء مثل هذا القول فى كتاب **ساويرس**» إذ قال: « فكان **هرقل** كأنما هو ذئب ضار يفتك بالقطيع ولا يشبع نهمه، وما كان ذلك القطيع إلا طائفة «التيودوسيين» - القبط - ولكن ما كان الاضطهاد إلا ليزيد من استطاعوا مقاومته إيماناً على إيمانهم، بدل أن يفتنهم عنه ويقضى عليه، فكانت الشدائد تتوالى بمذهب

---

(١) صموئيل تاوضروس السريانى: نفس المرجع ص ٢٤٢ .

القبط، والمصائب تفتك بأصحابه، ولكنه ظل قوياً لم تلن قناته، وبقى أكثر الناس على إيمانهم ثابتين أقوياء. ولكن حد ذلك البطش كان قد بلغ نفوسهم فثلمها، وجعل الداء ينخر فى جراحهم مدة تلك السنوات العشر وظلامها، فكان ذلك سبباً فى ضياع كل أمل فى عودة السلام والوفاق بين الطائفتين المتنازعتين، إذ استفحل الأمر واستمر مرير العداوة والكراهة لسلطان الدولة البيزنطية ودينها جميعاً» .

«وليت شعرى ماذا كان يدور بنفوس أهل مصر إذ ذاك، وبأى عين كانوا ينظرون إلى تلك الحركة العظيمة التى ثارت فى بلاد العرب، فما زالت حتى قرعت بلاد الشام وهزت مدائنها هزاً. إنا نقول، وإن قولنا لمما يشرف القبط، إننا لا نجد أقل دليل يبعثنا على الظن أنهم نظروا إلى تلك الحركة نظرة الميل والرضا. على أنهم لابد قد بلغهم أن المسلمين يدعون للمسيحيين أمور دينهم، ولعلهم قد خطر بقلوبهم عند ذلك أن الخضوع للمسلمين قد يخفف من الآلام التى نغصت عليهم حياتهم، وأن نير المسلمين قد يكون أخف حملاً من نير الملك الأصيل فى دين المسيح وهو **هرقل**. لا شك فى أنهم قد كرهوا دين الإسلام، وتدل على ذلك كل صفحة من صفحات تاريخهم[1] . ولكن **سيف قيرس** قطع آخر ما كان يربطهم إلى

---

(١) يمكن أن يكون هذا قبل مجيئ المسلمين إلى مصر مع ما فى كلام بتلر من التضارب، أما بعد الفتح فلا يمكن أن يصدق هذا بدليل أن مصر تعربت وأسلم أغلب سكانها فيما لم يجاوز بضعة عقود من الزمن. لكن يكفى أن المصريين رحبوا بسماحة المسلمين وعدالتهم وفضلوهم على حكامهم الذين هم إخوانهم فى المسيحية، حتى من قبل أن يفد العرب المسلمون إلى مصر.

الدولة الرومانية من أسباب الولاء، وذلك لكثرة ما لاقوه فى مدة السنوات العشر من الظلم الذى نزل بهم إلى حضيض من الشقاء لا أمل معه، فرأوا فى مجيئ المسلمين نازلة أرسلها الله لينتقم بها من ظالميهم».

«وهكذا دفع سوء الحكم خير بلاد الإمبراطورية إلى مأزق ما أضيقه، ولسنا نعرف جناية من هذه، أهى جناية **هرقل** وقد أطاعه **المقوقس** فيما أمر به من الشر؟ أم هى جناية **المقوقس** وقد عصا سيده وخان أمانته؟ فمن الجلى أن **هرقل** كان يقصد فى مبدأ أمره إلى قصد نبيل، فما كان أعظم أن يخلع على الكنيسة من السلام مثل ما خلع على الدولة[1] ، ولكنه لم يعرف ثبات الناس على أديانهم وحرصهم عليها، ولم يعرف أن الدين كان متغلغلاً فى أعمق فجاج الدولة، وأنه إذا شاء أن ينزعه منها بالقوة كان فى ذلك أشد الخطر على حياتها، وكذلك كان اختياره لمن ينفذ له أغراضه غير

---

(١) يقصد بتلر أنها كانت محاولة من هرقل بعد أن قهر الفرس وطردهم من أرجاء الامبراطورية أن يعمل على توحيد المذاهب، ووضع حد للخلاف الذى استشرى بين أتباعها. ونحن لا نوافق بتلر فى أن هرقل هنا كان حسن النية. حيث رأى أن أمور الدين والعقيدة مما ينبغى للدولة أن تقوم عليه وتباشره، أى أن غروره بالانتصارعلى الفرس هيأ له أنه من الممكن حل مسائل الخلاف المذهبى فى الداخل بالقوة أيضاً، ثم عمد إلى تطبيق ذلك عمليا فى الشام ومصر، ولكن خابت ظنونه، وأخطأت تقديراته، وضاعت كل خططه هباء.

وقد أورد الأنبا يوساب أسقف فوة شيئاً من مآسى القبط على يد المقوقس، فقال: «وأرسل – أى هرقل – إلى أرض مصر رجلاً يقال له المقوقس، وزير وبطرك، فهرب منه بنيامين إلى الصعيد، فى وادى هبيب، وكان المقوقس يعذب المؤمنين حتى يدخلوا فى اعتقاده، فعذب أخو الأب بنيامين بعذاب عظيم، وأحرق أجنابه، وقلع أضراسه، وأنزله الماء ثلاث مرات، وهو يقول له: قل إن مجمع خلقيدونية جيد ونحن نخليك! وعذب الأساقفة لإجبارهم على اعتقاد مذهبه...»إلخ (تاريخ الآباء البطاركة ص ٤٩).

موفق؛ فقد أرسل إلى مصر رجلاً ليعيد السلام، فإذا به ظالم عات، وأرسل كلمة يقصد بها نشر السلام، فلم يؤدها الرسول أو لم يسمع بها الناس، وأما الاضطهاد فلا شك فى أنه قد وافق عليه وأقره، ولكنه قد يكون أقره بعد أن لم يجد عنه محيصاً، فى حين أن **قيرس** لجأ إلى العسف بادىء ذى بدء، ولم يلجأ إلى وسيلة سواه. ومهما يكن من شىء فقد كان رأى الامبراطور فى القضاء على اختلاف المذاهب بأمر يأمر به رأيا بعث به الخيال والوهم، فقد ظن أنه يستطيع بكلمة سحر يقولها أن يهدئ العواصف الثائرة من الخلاف فى المذاهب، فرأى أنه زاد العاصفة شدة، ولم يستطع الصبر على الخيبة، ولم يرض أن يدع الأمور إلى الزمن ويلزم جانب الاعتدال، فعزم أن يسعى للسلام بخوض حرب دينية فى مصر والشام، فكان بعمله هذا يمهد السبيل فى القطرين لمطلع جنود الإسلام»[1] .

---

(١) فتح العرب لمصر ١/١٦٩ - ١٧١.

المبحث الثاني

الفرس في مصر

بعد حوالى ست سنوات قضاها الفرس فى فتح الشام ووصولهم إلى بيت المقدس ودخوله، جعلوا همهم الوصول إلى مصر التى تمثل ملاذاً لمن فر من وجههم، كما تمثل ثانى أكبر وأهم كنيسة مسيحية فى الشرق بعد كنيسة الشام. فخرجت جيوش الفرس من الشام قاصدة مصر، بقيادة «**شاهين**» وسلكت الطريق المعهود إلى مصر والذى سار فيه من قبل «**قمبيز**»، و«**الإسكندر المقدونى**» ثم سلكه من بعد «**عمرو بن العاص**» فى فتحه لمصر.

وعمد الفرس إلى «ممفيس» – مكان القاهرة اليوم – فاستلبوها ثم ركبوا فرع النيل الغربى «رشيد» إلى الإسكندرية، يستولون فى طريقهم على كل ما يصادفونه. غير أن أسوار الإسكندرية الحصينة قد عاقتهم من دخولها فترة من الوقت، على حين كانت الإسكندرية تضم أخلاطاً مضطربة من القبط والروم والسوريين واليهود وطلاب العلم، وآخرين من اللاجئين، أتوا إليها من كل أنحاء الدولة، فكان القبط والسوريون يكرهون الروم، واليهود يمقتون أتباع المسيح مقتاً لا يسله من قلوبهم ذلك الخطر الداهم عليهم جميعاً[1].

وأخذ الفرس أثناء حصارهم للإسكندرية يوقعون بما حولها من سكان الريف، ولا سيما ما فيه من الأديرة، يشفون بذلك ما فى نفوسهم من الغيظ، فأخربوا استمائة دير كانت عامرة بالرهبان والراهبات، وذلك كما

---

(١) بتلر: فتح العرب لمصر ١/٦٥.

جاء فى سيرة البابوين **«بطرس الرابع» و«أندرونيقوس»** وعنهما أخذ القمص **«يوحنا»** فى كتابه: «تاريخ الكنيسة القبطية» ص ٣٩٨[١] . ودكت الأديرة، وقتل كل من فيها، ولم يفلت إلا النذر اليسير ممن دخلوا الجحور والثنايا، ونهب كل ما كان فيها من مال ومتاع وكنوز ثمينة كانت تملأ مكتبات الأديرة[٢]، فكان كل ذلك آتٍ من أن الفرس جاءوا إلى مصر وأيديهم ما تزال ملطخة بما اقترفوه من النهب والقتل زمناً طويلاً، وكان أكثر ضحاياهم من المسيحيين الذين اتحدوا مع القبط[٣] .

ومما يؤكد هذا ما أشار إليه مؤرخو أحداث تلك الفترة من أمثال **«ساويرس المقفع» و«المسيو أميلينو»** حيث أوردوا قصة **«بيزنتيوس»** مطران أبرشية قفط بصعيد مصر، فإنه لما علم بغزو الفرس لمصر وماأوقعوه بما حول الإسكندرية من الأديرة، وجه موعظة بعث بها إلى أبرشيته كلها، وقال فيها: «لقد خذلنا الله لما نقترفه من الذنوب، وسلط علينا من الأمم من لا يرحمنا» ولم يشأ أن يبقى كما هو ليكون شهيداً، فآثر الهروب، وذلك فى أثناء نزول الفرس على الإسكندرية، فأعد عدته، وتصدق على الفقراء بما يملك، وذهب هو وتلميذه المخلص «حنا» إلى جبل بقرب مدينة قفط، وأخذا معهما مقدارا كبيراً من الخبز وماء النيل، فلما نفد منهما الماء لقيا

---

(١) الأديرة المصرية العامرة ص ٧٥.

(٢) بتلر: نفس المرجع ص ٦٦، الأنبا يوساب (أسقف فوة المتوفى سنة ١٢٤٣م): تاريخ الآباء البطارقة، ص ٤٨، أعده للنشر الراهب القس: صموئيل السريانى والأستاذ: نبيه كامل (بدون تاريخ).

(٣) بتلر: فتح العرب لمصر ص ٧٤.

مشقة كبيرة، لأنهما لا يقدران على الاقتراب من النيل، حتى ذهب **بيزنتيوس** تحت جنح الليل وهو حذر يترقب وأخذ الماء. ومازالا فى ذلك المخبأ زمنا طويلاً يصليان إلى الله نهاراً وليلاً ويدعوانه أن ينجى قومهما من أسر تلك الأمم الظالمة، ويفك عنهم غلها، فلما أدرك الفرس مدينة قفط وصارت فى أيديهم، هرب **بيزنتيوس** موغلاً فى الصحراء نحو ثلاثة أميال أخرى(١) .

غير أن التخريب والدمار الذى أحدثه الفرس بمصر كان فى حدود ضيقة ورقعة محدودة، بسبب أن الفرس فى أثناء حصارهم للإسكندرية كانوا بين أمرين: إما أنهم قد شغلهم الحصار مع أنهم أهل له ويجيدونه كثيراً، وإما أنهم كانوا أقصر همة من أن يبعثوا سراياهم بضعة أميال فى الصحارى الرملية، ولهذا فقد ثبت أن كل الأديرة البعيدة قد سلمت من الأذى، ومنها: دير «**الهانطون**» الكبير والبعيد الذى حفظت كل ما فيه من الكتب والمنسوخات، وكذلك دير «**قبريوس**» إلى الشمال الشرقى من الإسكندرية على ساحل البحر، ولعله مما ساعد على نجاة هذه الأديرة أيضاً أن الفرس وجهواهمتهم إلى الصعيد، فلم يحفلوا كثيراً بما كان خارجاً عن نطاق الوادى.

ثم يورد **بتلر** قصة أخرى تصف ما قاساه القبط على أيدى الفرس وصفاً أدق وأكثر وضوحاً، « وهى ترجمة حياة ظهرت حديثاً للولى القبطى المعروف «**الأنباشنودة**»، وقد أورد فيها الكاتب ذكر الغزو الفارسى، وجعله

---

(١) بتلر: نفس المرجع ص ٧٦، ٧٧.

فى صورة نبوءة، ولكنه كتبها ولا يزال فى الأحياء جماعة من الشيوخ أدركوا الحوادث التى يذكرها، وهاهى الكلمة: «سيأتى الفرس إلى مصر يسفكون فيها الدماء، ويسلبون أموال المصريين، ويسبون أبناءهم يبيعونهم بالذهب، فإنهم قوم ظالمون معتدون. وستنزل المصائب على أيديهم بمصر، يغصبون الكنائس ما بها من آنية مقدسة، ويشربون الخمر فى المحراب لا يبالون، ويهتكون أعراض النساء على مرأى من رجالهن، وسيبلغ الشر أعظمه والشقاء قصاراه، وسيهلك ثلث من بقى من الناس فى بؤس وعذاب، وسيبقى الفرس فى مصرحيناً من الدهر ثم يخرجون»[١].

وقد بقى الفرس فى مصر حوالى اثنتى عشرة سنة[٢]، قضوا منها نحو ثلاث سنوات يمهدون لسلطانهم فى طول البلاد وعرضها فى مصر وبنطابولس[٣]، حيث تتباعد حدود مصر وتترامى أطرافها، ولم يرد ذكر لمقاومة عنيفة أو قتال طويل، اللهم إلا عند الإسكندرية، لمناعة أسوارها، وأهميتها الدينية والاقتصادية. وكان الفرس فى أثناء القتال يظهرون قسوة عنيفة، كما فرضوا عى الكنائس جزية تؤديها، بعد أن استصفوا ما كان لها من أوقاف وأرزاق ونفائس. كما لم يكن الفرس من الصلابة فى أمر دينهم بحيث يرغمون المغلوبين على عبادة النار...[٤]. فقد اعتبر المجوس ديانتهم ديانة خاصة، ولم يدعو أحداً لاعتقادها.

(١) فتح العرب لمصر ١/٧٩.

(٢) ويرى المقريزى (تقى الدين أبى العباس أحمد بن على) ت ٨٤٥هـ: الخطط المقريزية ١/١٥٥، بيروت (د.ت) - أن مدة بقائهم فى مصر كانت عشر سنوات.

(٣) بنطابولس: المقصود الإقليم الذى يلى مصر غرباً من ممتلكات الروم، وكان يسمى أيضاً «برقة» أو «طرابلس» وكلها معانى أو أسماء لليبيا الحالية.

(٤) فتح العرب لمصر ١/٨١.

فتح مصر
محاولات سلمية وأبعاد حضارية

المبحث الثالث
مسيرة الفتح الإسلامي في مصر

بعد أن تم للمسلمين فتح بيت المقدس، كانت قد اكتملت في ذهن القائد **عمرو بن العاص** فكرة الانطلاق إلى فتح مصر، يدفعه إلى ذلك عدة أمور:

الأول: أن مصر كالشام، ولاية من توابع الإمبراطورية البيزنطية، بل من أهم الولايات في تأثيرها الاستراتيجي والاقتصادي، ولا يستبعد أن يتخذها الروم قاعدة انطلاق من جديد إلى بلدان فلسطين والشام والتي دانت للمسلمين.

والأمر الثاني: أن «**أرطبون**» حاكم بيت المقدس من قبل الروم كان قد فر إلى مصر عازماً على أن يجمع جنود الروم للوقوف في وجه المسلمين، وتعويض ما لم يتمكن من إنفاذه في بيت المقدس. ومن ثم فقد كان يلزم المسلمين ألا يتوانوا في سبيل عرقلة هذه المساعي التي قد تبذل في مصر، سواء من قبل حكومة القسطنطينية، أو من قبل **أرطبون**.

أما الأمر الثالث: فهو الذي يُعلِّق عليه كثير من المؤرخين، ويعتبرونه أول أسباب فتح مصر، وهو ما كانت عليه مصر من الغنى والثراء.

وأن المسلمين كانوا مدفوعين في فتوحاتهم بجدب بيئتهم العربية وفقرها، فاعتمدوا على فروسيتهم ومهارتهم الحربية في انتهاب خيرات البلدان التي توجهوا إليها بالفتح.

ولن نناقش هذا الأمر طويلاً؛ فقد سبق الكلام فيه بالتفصيل عند حديثنا عن أسباب ودوافع الفتوحات الإسلامية على الجملة.

لكن نشير فقط إلى أن الذين يلوحون بثراء مصر وغناها، وأن ذلك كان مما دفع **بعمرو** لفتحها، ربما يعولون فى ذلك على مشاهدات **عمرو** فى مصر فى جاهليته، واطلاعه على ثروتها الوفيرة على ما رواه **ابن عبد الحكم**[1] . وعلينا هنا ألا ننسى أن **عمراً** رضي الله عنه وعلينا هنا ألا ننسى أن عمراً رضي الله عنه صحابى جليل، وبطل من أبطال الإسلام، قد وعى ما جاء فى فضل مصر وأهميتها، فقد روى كعب بن مالك أن رسول الله ﷺ قال: «إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً». قال **محمد بن مسلم**: الرحم التى ذكر رسول الله ﷺ لهم: كانت هاجر أم إسماعيل منهم، وعن **عبد الرحمن بن شماسة المهرى** قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «انكم ستفتحون أرضا يذكر فيها القيراط، فاستوصوا بأهلها خيراً، فإن لهم ذمة ورحماً»، كما روى أن **مسلم بن يسار** قال: قال رسول الله ﷺ : «استوصوا بالقبط خيراً، فإنكم ستجدونهم نعم الأعوان على قتال عدوكم»[2] .

وروى **عبد الله بن لهيعة** من حديث **عمرو بن العاص** ، أنه قال: حدثنى **عمر أمير المؤمنين** رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إذا فتح الله عليكم بعدى مصر فاتخذوا فيها جنداً كثيفاً، فذلك الجند خير أجناد الأرض» فقال **أبو بكر** رضي الله عنه : ولم ذلك يا رسول الله؟ قال: «لأنهم فى رباط إلى يوم القيامة»[3] .

---

(١) فتوح مصر وأخبارها ص ٥٥ طبع ليدن ١٩٢٠م.

(٢) فتوح مصر وأخبارها ص ٣٠٢.

(٣) خطط المقريزى ١/ ٢٤.

فإذا أضفنا كل هذا إلى ما سبق، اتضحت لنا أهمية فتح مصر للإسلام، تلك الأهمية التى أدركها **عمرو** قائد فتحها وأكدتها لديه زيارته السابقة لها، واطلاعه على أحوالها وشئونها، فأهميتها بذلك بالغة، فى نواح كثيرة، اقتصادية، ودينية، ونفسية، واستراتيجية، وليست محصورة فى ثروتها فقط، كما يدعيه كثير من المستشرقين، وبعض المؤرخين المسلمين.

وعلى كل، فإن **عمرو بن العاص** لما عرض على الخليفة **عمر** رأيه فى ضرورة فتح مصر، خشى الخليفة من تفرق الجند الإسلامى فى هذه البلاد البعيدة (مصر)، التى لم يكن المسلمون قد خبروها بعد. فسمح **لعمرو** أن يسير صوب مصر سيراً يسيراً، فى حين كان **عمرو** يعد لتنفيذ ما أراده من غزوها، يدفعه إلى ذلك أنه كان قد زار مصر من قبل تاجراً، وله خبرة بأحوالها، ووعده الخليفة **عمر** أن يفكر فى الأمر، وأنه سوف يكتب له برأيه فيما بعد.

فسار **عمرو** بجيش صغير (٣٥٠٠ - ٤٠٠٠ رجل) حتى صار على الحدود بين فلسطين ومصر، ثم سار حتى نزل عند رفح[١]، فأتته عند ذلك رسل الخليفة تحث الخطى، تحمل إليه رسالة مؤداها: أن إذا أتاك كتابى ولم تدخل مصر فارجع، وإذا أتاك وقد دخلتها فسر على بركة الله، وسنوافيك بالأمداد، لأن الخليفة كان يدرك أن هذه القوات إذا دخلت مصر ثم غادرتها بدون فتح فإن فى ذلك خطر عظيم، ويكون خذلاناً وسبة. فلما فض **عمرو** الرسالة وقرأها سأل الناس: أنحن بالشام أم بمصر؟ فأجابوه أنهم فى أرض مصر.

---

(١) رفح: مدينة مصرية، بين غزة والعريش، على ساحل البحر المتوسط.

وفـى تـلك الأثـناء كـان **المقوقس** - حـاكم مصر الأعلى من قبل **هرقل** - قد أعد العدة وتجهز لصد غارة المسلمين، « فحفر خندقاً حول حصن بابليون العظيم بقرب ممفيس، وزاد فى تحصين الحصون الأخرى، ورمم أسوار كثير من المدائن التى كانت غزوة الفرس هدمت منها»[١] . هذا من الناحية العسكرية والدفاعية التى اتخذها **المقوقس**. أما من الناحية النفسية للسكان وبخاصة القبط «أهل مصر» فكانت فى غاية السوء من جراء تلك الاضطهادات والانقسامات الدينية التى أشعل نارها **المقوقس** فى تنفيذه لفكرة الإمبراطور المانوثيلية[٢] .

اتهام المقوقس بالخيانة:

وهنا لابد أن ننبه إلى دور **المقوقس** هذا فى مواجهة الفتح الإسلامى، حيث اتهم فيه كثيراً، وقيل إنه خان حكومته وباع مصر للمسلمين! ولعلنا نلتمس العذر لمن يدعون هذا لسببين اثنين:

الأول: أنهم قد انزعجوا لزوال النصرانية من مصر وسيادة دين الإسلام بين أهلها فى وقت قصير (هذا بالنسبة للمخلصين منهم للمسيحية)، وأهم من ذلك ضياع مصر من سلطان الإمبراطورية التى كانت تعتمد عليها كثيراً فى توريد الأموال والغلال إلى خزائنها وصوامعها، أكثر من أى ولاية أخرى.

---

(١) بتلر: فتح العرب لمصر ١/١٨٣.

(٢) تنظر صفحات ١٢٥ وما بعدها من الدراسة، بخصوص تولية هرقل للمقوقس على مصر، وتعسف هذا مع القبط

والسبب الثانى: أن **المقوقس** نفسه فى رده على رسالة النبى ﷺ التى أرسلها إليه يدعوه فيها إلى الإسلام، كان فى غاية التلطف والمجاملة؛ فقد خاطب حامل الرسالة - **حاطب بن أبى بلتعة** - قائلاً: «قد كنت أعلم أن نبيا قد بقى، وقد كنت أظن أن مخرجه من الشام، وهناك كانت تخرج الأنبياء من قبله، فأراه قد خرج فى العرب، فى أرض جهد وبؤس والقبط لاتطاوعنى فى اتباعه» . قال **حاطب** وهو يقص قصته: ثم سكت **المقوقس** قليلاً، ولعله تذكر أنه تابع **لهرقل** صاحب بيزنطة، وأنه يدين له بالولاء، فاستدرك يقول لى: «ولا أحب أن يعلم بمحاورتى إياك»، فقد ينتقل الحديث عن النبى الجديد حتى يصل إلى **هرقل** ، فيلحق **المقوقس** أذى هو فى غنى عنه[1] . ثم تلطف **المقوقس** ثانية فى رد رسول رسول الله ﷺ ؛ فحمله هدايا قيل إن منها فتاتين من القبط هما مارية وأخت لها وكسوة وبغلة مسرجة، وقيل كان مع الهدايا طبيب.

فهذا الذى حدث من **المقوقس** يوحى إلى هؤلاء الذين يدعون الإخلاص للمسيحية بالشك فى تدينه، وأنه مال مع المسلمين عند الفتح، ويعزز قولهم هذا أن **المقوقس** كان قد اقتطع خراج مصر لنفسه من وقت حصار كسرى للقسطنطينية، وأنه بسبب ذلك يخاف أن يقع فى يد الملك **هرقل** فيقتله، فاحتال على الروم وقال لهم: «إن العرب قد جاءهم نجدة وليس لنا بهم طاقة، ولا نأمن منهم أن يفتحوا القطر فيقتلونا...»[2] .

---

(١) الأستاذ/ محمد صبيح: مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية ص ٧٣ «طبعة ثانية» القاهرة ١٩٦٥م.

(٢) سعيد بن بطريق: التاريخ المجموع الى التحقيق والتصديق ٢/٢٢.

أما سيديو، فقد وصف **المقوقس** بأنه: الرجل الماهر الداهية، الذى كان عظيم مصر حين غزو **أنو شروان** إياها، فكان يأخذ ضريبتها كلها لنفسه، بدلاً من إرسالها إلى القسطنطينية أو طيسفون (المدائن)، فجمع بذلك مالاً كبيراً، فبدا سخياً نحو أبناء وطنه، فزاده كرمه نفوذاً، فما كان أحد ليمارى فى تمثيله لجميع الأقباط، فأرسل **محمد** ﷺ إليه رسولاً، فقبل **محمد** ﷺ هديته، فوجد العرب فيه حليفاً نافعا بعد حين[1] .

ونرى – هنا – أن **سيديو** يلوح بكلامه هذا إلى أن **المقوقس** كان يعتبر مصر ولاية خاصة به، يدين له كل القبط بها، ويختص نفسه بخراجها حتى من دون الإمبراطور، فإن صح كلامه هذا، فإنما كان ينبغى على **المقوقس** أن يدافع عن ولايته الخاصة فى مواجهة الفاتح المسلم، لا أن يحالف المسلمين ويتنازل لهم عنها، يعنى إذا كان **المقوقس** قد استأثر بمصر لنفسه غير عابئ بالإمبراطور، فإنه يكون من الأحرى به أن يدافع عنها فى مواجهة خطر المسلمين عليها.

ثم يلوح **رنسيمان**[2] إلى خيانة **المقوقس** أيضاً، فيقول: «أما **كيرس**، فجرى استدعاؤه إلى القسطينية لما تحقق من خيانته، فى أنه دخل مع **عمرو بن العاص** فى مفاوضات لعقد اتفاق، غير أن **هرقل** مات فى فبراير

(١) تاريخ العرب العام ص ١٢٩.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٨.

وبلغ العجز بأرملته الوصية فى القسطنطينية ما يمنعها من الدفاع عن مصر(١).

ويأتى فى كلام **رنسيمان** بعد ذلك ما ينتقض كلامه السابق، حيث يقول: فتقرر إعادة **كيرس** إلى مصر، ليبذل كل ما فى وسعه للوصول إلى اتفاق، فقدم إلى **عمرو** فى نوفمبر فى بابليون، ووقع على تسليم الإسكندرية(٢). ففى هذا القول الأخير ما يتناقض مع ما سبقه من كلامه ويدحضه؛ إذ كيف لحكومة القسطنطينية التى تحققت من خيانة **كيرس** واستدعته إليها، أن تعيده هو بذاته إلى مصر لمحاولة تخليصها؟ أهو عبث من مؤرخى الغرب الذين يتهمون **المقوقس** بخيانة دينه وحكومته؟ أم هى محاولة لتحميل **المقوقس** عبء ضياع الإمبراطورية كلها، لما تنازل عن مصر؟ أم ماذا؟ .

فلننظر أولاً إلى تصرف **المقوقس** نفسه فى مواجهة القوات الإسلامية الفاتحة، ليكون فى ذلك دليلنا على أنه لم يمل مع المسلمين، كما لم يكن عوناً لهم على الروم؛ فها هو يهتم بتحصين القلاع، وترميم الأسوار وتعبئة البلاد لدفع المسلمين، ثم هو دائما يظهر إخلاصه للإمبراطور وتأييده لمذهبه المونوثيلى الجديد، الذى سعى جاهداً لإجبار القبط على اعتناقه، حتى إن **صفرونيوس** الرئيس الدينى للمسيحيين فى بيت المقدس كان ناقداً لتصرف **المقوقس** على هذا الشكل، وجاءه بمصر ناقماً عليه اضطهاده

---

(١) تاريخ العرب العام ص ١٢٩.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٨.

للقبط، وناصحاً له، معتبراً أن تغيير الناس لمعتقداتهم أمر لا يمكن أن يتم بالإكراه، ومع كل هذا لم يأبه **المقوقس** بمقالته له[1] .

ومن جهة ثانية، فإن **المقوقس** لو كان بالفعل يعتزم شراء رضا المسلمين وعفوهم، لاشترى من قبل رضا الأقباط الذين يصبون الأموال فى خزائنه صباً، ولما سامهم هذا الخسف والهوان فى سبيل إرضاء سيده الإمبراطور !.

وغاية ما يمكن قوله هنا: أن **المقوقس** قد رأى امبراطوره العظيم نفسه «يتحطم تحت مطارق العرب - المسلمين -، ورأى بيت المقدس نفسه يسقط، ورأى مئات الألوف من الجيوش اليونانية تتداعى أمام هجوم العرب، فهل كان يظن بشخص عاقل أن يرضى بخراب مصر وضياع أعلام المسيحية فيها إذا ما ظلت تقاوم إلى آخر شبر»[2] . **ومن جهة ثالثة** فلعل **المقوقس** الذى لم يعبأ بما نصحه به زميله **صفرونيوس** من قبل، قد قاس نفسه الآن عليه، وشاهده وهو يسلم بنفسه مفتاح بيت المقدس للخليفة فاهتدى إلى فكرة الصلح مع المسلمين، من باب أنه لن يكون على مستوى **هرقل** العكسرى فى الشام كله، ولاعلى مستوى **صفرونيوس** فى بيت المقدس. ثم عزز ذلك كله فى نظره بسالة الجند الإسلامى، الذى لم يكن أمامه من سبيل إلا النصر أو الفناء فى ربوع مصر، تلك البسالة التى قوضت الدرع العسكرى البيزنطى فى مصر، وساندها إلى حد ماترحيب القبط بالحكم الإسلامى الذى سمعوا من قبل عن عدالته وسماحته فى بلاد

---

(١) فتح العرب لمصر ١/١٥٩.

(٢) محمد صبيح: مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية ص ٧٣.

الشام، وتخاذل القبط فى مقابل ذلك عن التعاون مع الروم الجائرين، وبخاصة بعدما سمعوا بما حل بطغاة بيزنطة فى الشام من هزائم متلاحقة. ومن ثم قوى لديهم الأمل فى أن يكون إنقاذهم على أيدى هذه القوة الجديدة التى انبثقت إلى الوجود فى قصير زمن، وصار يسبقها تاريخها وعدلها وسماحتها مع المغلوبين، وأصبح «كل ما كانت ترجوه مصر هو أن يغير عليها مغير آخر يطرد الظالم ويقوم مقامه»[١] .

ومن هذا يتبين كل دارس لتاريخ فتح مصر أن **المقوقس** لم يكن بدعاً من سائر حكام الروم وقساوستهم، فلم يكن كارها للنصرانية، ولا متنكراً لسيادة بيزنطة، إنما رأى بحكم موقعه لآخر ولاية بيزنطية خارج حدود الإمبراطورية أن لا سبيل إلى زحزحة المسلمين عن مصر والحال على ما هى عليه بالنسبة للقسطنطينية من الضعف، وأن تحكيم العقل والخروج من الأزمة بأقل الخسائر وأفضل النتائج هو الرأى والصواب، أو هو الأمر الذى لا أمر سواه.

وبذا تصبح كل الادعاءات التى سيقت عن خيانته وبيعه مصر للمسلمين مجرد أنفاس مكتومة، وغيظ متقد، وأحقاد مدفونة، سيقت كلها لنعى مصر – الدرة الثمينة والمصدر الأكبر لتمويل عاصمة الروم – بعد أن دانت للإسلام، وعلت فيها رايته، وسادت كلمته. فكان تعقل **كيرس** واستسلامه للواقع مثاراً للاتهام بالخيانة وتضييع مصر!. وفى كلام «**بتلر**» نفسه[٢] ما يؤكد أن **المقوقس** رأى الواقع واضطر إليه، ولم تفلح غدرات

---

(١) محمد صبيح: نفس المرجع ص ٧٤.

(٢) فتح العرب لمصر ٢٢٨/١، سيديو: تاريخ العرب العام ١٢٩.

الروم ولا سيوفهم فى دفع المسلمين. **وبتلر** نفسه من أشد المتهمين **لكيرس** بالخيانة!.

متابعة الفتح:

ونعود إلى **عمرو بن العاص** وجنده لنراه وقد أقبل من العريش حتى نزل بالفرما[1] ، واحتلها بعد وقت من الحصار (شهر تقريباً)، ثم غادرها ماراً بالحوف الشرقى (الشرقية الآن)، حتى إذا كان ببلبيس عسكر بها وجاءته وفادة من قبل **المقوقس** عليها اثنان من القساوسة[2] ، فأمهلهما أربعة أيام، كما هى عادة المسلمين فى الصبر على الشعوب التى ينزلون عليها وتخييرهم، وذكرهم بالقرابة بينهم وبين المسلمين والتى أشار إليها النبى ﷺ غير مرة، إلا أن **أرطبون** أو «**أريطيون**» - كما يصححه **بتلر** - قائد الروم فى فلسطين من قبل، والذى كان قد فر إلى مصر، عمد إلى مباغتة المسلمين بقوة بيزنطية، دحرت بسهولة وقتل الكثير من جندها وقتل **أرطبون** نفسه.

وهنا سار **عمرو** بجنده حتى نزل بقرية «أم دنين» أو «المقس» التى موضعها حديقة الأزبكية الآن، وكان لابد **لعمرو** هنا أن ينتظر مدد الخليفة إليه، حتى يعزز جنده، ويقدر على مطاولة الروم، ودخول حصن بابليون عليهم، ولذا قرر السير جنوباً لاقتطاع بعض أجزاء مصر، فوصل إلى

---

(١) الفرما: هى مدينة بلوزيوم القديمة Pleusium فى شمال شبه جزيرة سيناء، عى ساحل البحر المتوسط، شرقى بور سعيد الحالية.

(٢) سماهما الطبرى وابن الأثير: «أبو مريم» و«أبو مريام»، ويرى بتلر أن الأسمين تحريف لاسم المطران بنيامين، أو أبو ميامين، أو أنهما كانا اسقفين بهذين الاسمين.

البهنسا وضواحى الفيوم[١] ، ثم صعد نحو الشمال ثانية حيث وافته أخبار وصول الأمداد بقيادة **الزبير بن العوام**، فالتقوا جميعاً فى «هليوبوليس» شمال القاهرة الآن.

وكان الروم فى الفترة التى قضاها **عمرو** فى الجنوب قد اجتمعوا وتهيأوا، فخرجوا إلى المسلمين فى هيليوبوليس، غير أن **عمراً** قد علم بمكيدتهم، فخرج فالتقى بهم فى العباسية، ودار بين الفريقين قتال شديد، وكلاهما يعلم أن هذا يوم تقرير مصيره. وفى أثناء ذلك تروى قصة مؤداها أن قبطياً سمع مرة وهو يقول: ما أعجب أمر هؤلاء العرب! فإنهم أتوا إلى مصر فى قلة من الناس، يريدون لقاء الروم فى كتائبهم العظيمة. فأجابه قبطى آخر: إن هؤلاء قوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه حتى يقتلوا أخيرهم[٢] . كما روى أن الروم كانوا لا يقدمون على القتال، ويقولون: مالنا من حيلة فى قوم غلبوا كسرى وهزموا قيصر فى بلاد الشام. وكل هذا على الرغم من أن قواتهم التى كانت فى المواجهة تزيد على عشرين ألفاً، عدا من تمركزوا فى الحصون[٣] .

ودارت الدائرة على الروم، ووقع الفشل، وحلت بهم الهزيمة، ففروا لا يلوون على شىء يطلبون النجاة، فلحق أكثرهم بحصن بابليون، وهلك منهم الكثير وأصبح الحصن هو المركز الرئيسى فى الدفاع عن مصر،

---

(١) بتلر: فتح العرب لمصر ١/١٩٨.

(٢) أبو المحاسن: جمال الدين يوسف بن تغرى بردى (ت٨٧٤هـ): النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ١/٧، القاهرة (بدون تاريخ).

(٣) بتلر: فتح العرب لمصر ١/٢٠٢.

وبخاصة وأن العرب لم يألفوا كثيراً حرب الحصار، لكنهم بما أحرزوه من انتصارات صار يمكنهم الصمود على الحصار وإحكامه.

وهنا وصل المدد الذى أرسله الخليفة من المدينة المنورة إلى **عمرو** بمصر، فكان أربعة آلاف، على رأس كل ألف منهم رجل بألف، وكتب **عمر** إلى **عمرو** يقول: «إنى قد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف رجل منهم رجل مقام الألف: **الزبير بن العوام**، **والمقداد بن عمرو**، **وعبادة بن الصامت**، **وخارجة بن حذافة**[1] ، ثم قال **لعمرو** : اعلم أن معك اثنى عشر ألفاً، ولن يغلب اثنا عشر ألفا من قلة»[2] .

وفعلاً أدى صبرالمسلمين على الحصار، وشدة بأسهم إلى خور فى عزيمة من بالحصن واختلاف رأيهم؛ فما مضى شهر والحال هذه حتى جمع **المقوقس** من وثق بهم من رءوس الحرس وأسقف بابليون الملكانى واستشارهم سراً فى الأمر، وبسط لهم رأيه، وأنه لا يتوقع أن يأتيهم مدد جديد من الروم فى وقت قريب، لهذا اقترح أن يفدواأنفسهم بمال يدفعونه للمسلمين، كيما يرحلوا عنهم، واتفقوا على أن يخرج **المقوقس** ليلاً من الحصن إلى جزيرة الروضة ليقوم بالتفاوض مع المسلمين[3] .

---

(١) فى الراجح أن خارجة بن حذافة كان هو الرابع، حيث ثبت أن عمراً كان يبثه فى سرايا وطلعات على الروم، وبذا لا يكون مسلمة بن مخلد هو رابع القادة الموفدين إلى مصر حسب ظن ابن عبد الحكم وتعويل أبى المحاسن عليه.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ص ٦١، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١/٨.

(٣) تساق فى هذا الصدد حكايات كثيرة وعجيبة عمن هربوا مع المقوقس، وخيانة الحرس، وأشياء أخرى سهلت لعمرو فتح الحصن، وكلها زائفة، لا يقصد من ورائها إلاتهوين أمر فتح المسلمين لمصر! وإثبات الخيانة من جانب المقوقس!.

ومن هنا أرسل **المقوقس** إلى **عمرو** جماعة كان منهم أسقف بابليون فلقيهم **عمرو** وأكرمهم، فأدوا إليه رسالتهم فقالوا: «إنكم قوم قد ولجتم فى بلادنا، وألححتم على قتالنا، وطال مقامكم فى أرضنا، وإنما أنتم عصبة يسيرة وقد أظلتكم الروم وجهزوا إليكم ومعهم من العدة والسلاح، وقد أحاط بكم هذا النيل، وإنما أنتم أسارى فى أيدينا، فابعثوا إلينا رجالاً منكم نسمع من كلامهم، فلعل أن يأتى الأمر فيما بيننا وبينكم على ما تحبون ونحب وينقطع عنا وعنكم القتال، قبل أن تغشاكم جموع الروم فلا ينفعنا الكلام ولا نقدر عليه، ولعلكم أن تندموا إن كان الأمر مخالفاً لطلبتكم ورجاءكم، فابعثوا إلينا رجالاً من أصحابكم نعاملهم على ما نرضى نحن وهم به من شىء»[1].

وهذه الرسالة لا تختلف كثيراً عما قاله **يزدجرد** ملك فارس لرسل **سعد بن أبى وقاص** قبل وقعة القادسية؛ ففيها من الترهيب والتقليل من شأن المسلمين ما فيها، كما أنها لا تنم عن روح المسالمة التى يدعى مؤرخو الغرب أنها كانت بداية الخيانة من **المقوقس**. وعموماً فقد تلقى **عمرو بن العاص** هذه الرسالة بروح المجاهد الواثق والبطل الصلب، فلم تفزعه أو تصده عما جاء له. فأقام الرسل عنده يومين اطلعوا فيهما على حال المعسكر الإسلامى الذى تجولوا فيه بحرية، ثم أوفدهم **عمرو** برسالة من عنده جاء فيها: «ليس بينى وبينكم إلا إحدى ثلاث خصال: إما أن تدخلوا فى الإسلام فتكونون إخواننا ولكم مالنا، وإما أن تعطوا الجزية عن يد

---

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١/١١.

وأنتم صاغرون، وإما أن نجاهدكم بالصبر والقتال حتى يحكم الله بيننا وهو أحكم الحاكمين»[1] .

فكان هذا الرد من عمرو مما يؤكد ثبات المبدأ عند المسلمين. وأن عوامل المادة لا تؤثر فى هذا المبدأ أو تضعفه، سواء كانت ترغيبا أم ترهيبا.

وفرح المقوقس بعودة رسله، إذ كان قد خاف عندما حبسهم عمرو وجعل يقول لأصحابه، أترون أن العرب تقتل الرسل ويستحلون ذلك فى دينهم؟ غير أن رسله كان قد وقع فى نفوسهم ما عند المسلمين من بساطة وإيمان عميق. فقالوا للمقوقس : «رأينا قوماً الموت أحب إلى أحدهم من الحياة، والتواضع أحب إلى أحدهم من الرفعة، ليس لأحدهم فى الدنيا رغبة ولا نهمة، إنما جلوسهم على التراب، وأكلهم على ركبهم، وأميرهم كواحد منهم، ما يعرف رفيعهم من وضيعهم، ولا السيد منهم من العبد وإذا حضرت الصلاة لم يتخلف عنها منهم أحد، يغسلون أطرافهم بالماء ويخشعون فى صلاتهم»[2] .

من هنا أدرك المقوقس أن لا طائل يرجى بعد ذلك مع أولئك الذين أرسلوا إليه بشروط لا هوادة فيها ولا تزحزح عنها، فأرسل إلى عمرو أن يرسل إليه جماعة من ذوى الرأى ليتباحث معهم فيما من شأنه أن يؤدى إلى الصلح. فبعث عمرو إليه بعشر رجال منهم عبادة بن الصامت، وكان

(١) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١/١١

(٢) المصدر السابق والصحيفة.

شديداً أسود اللون، وأمره أن يكون متكلمهم، وألا يجيب الروم إلى شيء يدعونه إليه غير الخصال الثلاث.

فلما عبر وفد المسلمين إلى الجزيرة، ودخل **عبادة** على **قيرس** هابه وقال: «نحوا عنى ذلك الأسود وقدموا غيره يكلمنى»[1] . فقال جميع من فى الوفد: «إن هذا الأسود أفضلنا رأياً وعلما، وهو سيدنا وخيرنا والمقدم علينا وإنما نرجع جميعاً إلى قوله ورأيه، وقد أمره الأمير دوننا بما أمره، وأمرنا ألا نخالف رأيه وقوله»، فعجب **قيرس** من كلام المسلمين الذين يستوى عندهم الأبيض بالأسود، والحر بالعبد، وأشار إلى **عبادة** أن يتكلم برفق حتى لا يزعجه، فقال **عبادة** : «إن فيمن خلفت من أصحابى ألف رجل أسود كلهم أشد سواداً منى، وإنى ما أهاب مائة رجل من عدوى لو استقبلونى جميعاً، وكذلك أصحابى. وذلك إنما رغبتنا وهمتنا فى الجهاد فى الله واتباع رضوانه، وليس غزونا عدونا ممن حارب الله لرغبة فى دنيا ولا طلباً للاستكثار منها.. لأن غاية أحدنا من الدنيا أكلة يأكلها يسد بها جوعه لليله ونهاره، وشملة يلتحفها، لأن نعيم الدنيا ليس بنعيم، ورخاؤها ليس برخاء، وإنما النعيم والرخاء فى الآخرة»[2] .

وقد وقع هذا الكلام من **عبادة** فى نفس **قيرس** ، حتى قال لأصحابه: هل سمعتم مثل كلام هذا الرجل؟ إن هذا وأصحابه قد أخرجهم الله لخراب الأرض . وهو نفس الكلام الذى قاله **صفرونيوس** لأصحابه أثناء تجواله مع

---

(١) أبو المحاسن : نفس المصدر ص ١٢ ، بتلر: فتح العرب لمصر ١/٢٢٤.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة: ١/١٢ ، ابن بطريق: نفس المرجع ص ٢٣ ، بتلر: فتح العرب لمصر ١/٢٢٥.

الخليفة عمر فى بيت المقدس!! ثم أقبل **قيرس** على **عبادة**، فقال: «قدسمعت مقالتك وما ذكرت عنك وعن أصحابك، ولعمرى ما بلغتم ما بلغتم وما ظهرتم على من ظهرتم عليه إلا لحبهم الدنيا ورغبتهم فيها، وقد توجه إلينا لقتالكم من جمع الروم مالا يحصى عدده، قوم معروفون بالنجدة والشدة، ما يبالى أحدهم من لقى ولا من قاتل، وإنا لنعلم أنكم لن تقدرواعليهم، ولن تطيقوهم لضعفكم وقلتكم»[1] .

فقال عبادة: يا هذا، لا تغرن نفسك وأصحابك، أماما تخوفنا به من جمع الروم وعددهم وكثرتهم وأنا لا نقوى عليهم، فلعمرى ما كان هذا بالذى تخوفنا به، وإن كان ماقلتم حقاً فذلك والله أرغب ما يكون فى قتالهم وأشد لحرصنا عليهم، لأن ذلك أعذر لنا عند ربنا إذا قدمنا عليه، إن قتلنا عن آخرنا كان أمكن لنا فى رضوانه وجنته، وماشىء أقر لأعيننا ولا أحب لنا من ذلك، وإنا منكم حينئذ لعلى إحدى الحسنيين، إما أن تعظم لنا بذلك غنيمة الدنيا إن ظفرنا بكم، أو غنيمة الآخرة إن ظفرتم بنا، وإنها لإحدى الخصلتين إلينا بعد الاجتهاد منا، وإن الله عز وجل قال لنا فى كتابه : **﴿ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴾**[2] ، وما منا رجل إلا وهو يدعو ربه صباحاً ومساءً أن يرزقه الشهادة وأن لا يرده إلى بلده، ولا إلى أرضه، ولا إلى أهله وولده، وليس لأحد منا هم فيما خلفه، وقد استودع كل واحد منا ربه أهله وولده، وإنما همنا ما أمامنا. فانظر الذى تريد فبينه لنا، فليس بيننا وبينك خصلة نقبلها منك ولا نجيبك

---

(١) النجوم الزاهرة ١/١٣ .

(٢) من الآية: ٢٤٩ من سورة البقرة.

إليها إلا خصلة من ثلاث، فاختر أيتها شئت، ولا تطمع نفسك فى الباطل. فبذلك أمرنى الأمير، وبها أمره أمير المؤمنين، وهو عهد رسول الله ﷺ من قبل إلينا»[١] .

أمام ذلك حاول **قيرس** أن يستنزل **عبادة** عن شىء أو يجعله يقبل شيئاً مما عرضه عليه، يعنى الفداء بالمال، فلم يقبل، وأطنب فى ذلك حتى نفد صبر **عبادة** فرفع يديه إلى السماء وقال: «لا ورب هذه السماء ورب هذه الأرض ورب كل شىء، مالكم عندنا من خصلة غيرها فاختاروا لأنفسكم»[٢] .

فعند ذلك اجتمع **قيرس** بكبار أصحابه، فتشاوروا فى الأمر، وقالوا: أما الأمر الأول (أى الإسلام) فلا نجيب إليه أبداً، فلن نترك دين المسيح إلى دين لا نعرفه، وأما الجزية فإنا إذا أذعنا للمسلمين ودفعنا الجزية لم نعدُ أن نكون عبيداً، وللموت خير من هذا، فقال لهم **عبادة بن الصامت**: إن دفعتم الجزية كنتم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم، مسلطين فى بلادكم على ما فى أيديكم وما تتوارثونه فيما بينكم، وحفظت لكم كنائسكم لا يتعرض لكم أحد فى أمور دينكم.

فكان فى هذا الإيضاح الذى ساقه **عبادة** إظهار لروح السلم والموادعة عند المسلمين الذين لم يكونوا أهل غدر أو استذلال لمن يغلبونهم. مما جعل **كيرس** وبعض من معه ينظرون إلى الأمور برؤيا جديدة، حيث اتضح أن المسلمين يختلفون تماماً عن كل الغالبين ممن سبقوهم، إذ الأمر بالنسبة

---

(١) المقريزى: الخطط ١/٢٩٣، أبو المحاسن: النجوم الزاهرة ١/٥١.

(٢) النجوم الزاهرة ١/١٥.

لهم مجرد التزام بالطاعة، وأداء لما يتقرر من الجزية، فى مقابل تمتع أهل البلدان بكافة حرياتهم فى حياتهم ومعتقداتهم وكافة شئونهم.

كما أنه مع هذا الاقتناع بسلوك المسلمين ومعاملاتهم لأهل البلاد المفتوحة لم ينس **المقوقس** نتاج النشاط الحربى للمسلمين مذ خرجوا من المدينة المنورة وأزالوادولة فارس، ثم يمموا صوب الجناح البيزنطى الراسخ فى بلاد الشام فاقتطعوه وأذاحوا القيصر مدحوراً إلى قسطنطينية، وكل هذا يؤكد على ضرورة إعمال العقل والتحوط للأمر، حتى لا يصيب مصر ما أصاب الشام.

ومن ثم فقد أوضح **قيرس** الأمر لأصحابه، وأشار عليهم قائلاً: أطيعونى وأجيبوا القوم إلى خصلة واحدة من هذه الثلاث، فوالله مالكم بهم طاقة! ولئن لم تجيبوا إليها طائعين لتجيبنهم إلى ما هو أعظم كارهين. فقالوا: وأى خصلة نجيبهم إليها؟. قال: إذاً أخبركم، أمادخولكم فى غير دينكم فلاآمركم به، وأما قتالهم فأنا أعلم أنكم لن تقووا عليهم ولن تصبروا صبرهم، ولابد من الثالثة، قالوا: فنكون لهم عبيداً أبداً؟. قال: نعم، تكونون عبيداً مسلطين فى بلادكم آمنين على أنفسكم وأموالكم وذراريكم خير لكم من أن تموتوا عن آخركم، وتكونون عبيداً تباعوا وتمزقوا فى البلاد مستبعدين أبداً أنتم وأهلكم وذراريكم.

غير أن الروم ركبوا رءوسهم ، ورفضوا ما عرضه عليهم **قيرس** وألحوا على القتال، وأخذوا يتجهزون للقاء المسلمين، فاشتد المسلمون عليهم فى اللقاء، حتى ظفروا بهم وأمكنهم الله منهم، فقتلوا منهم خلقاً كثيراً،

وأسروا الكثير أيضاً. وراح **المقوقس** يلوح لأصحابه من جديد، ويقول: ألم أعلمكم هذا وأخافه عليكم؟ ما تنتظرون! فوالله لنجيبنهم إلى ما أرادوا طوعاً، أو لنجيبنهم إلى ما هو أعظم من ذلك كرهاً، فأطيعونى من قبل أن تندموا. وعندئذ أذعنوا له مرغمين، ورضوا بالجزية[١] ، على أن يوقعوا صلحاً مع المسلمين.

وتوسل **المقوقس** فى ذلك إلى **عمرو**، فأخذ **عمرو** يستشير أصحابه، فبادروه قائلين: لا نجيبهم إلى شيء من الصلح ولا الجزية حتى يفتح الله علينا وتصير الأرض كلها لنا فيئاً وغنيمة كما صار لنا القصر (أى الحصن) وما فيه. فقال لهم **عمرو**: قد علمتم ما عهد إلىّ **أميرالمؤمنين** فى عهده، فإن أجابوا إلى خصلة من الخصال التى عهد إلىّ فيها أجبتهم إليها، وقبلت منهم مع ما قد حال هذا الماء بيننا وبين ما نريد من قتالهم. حيث فرت أكثر السفن بالروم من القصر إلى الجزيرة، ولم يعد بإمكان السملمين مطاولتهم عبر هذا الماء الذى لم يكن للمسلمين حتى الآن إلف به.

وبهذا وقع الصلح بين الطرفين، وتعاهدوا على أن على جميع من بمصر أعلاها وأسفلها من القبط دينارين دينارين، على كل نفس، شريفهم ووضيعهم ممن بلغ الحلم منهم، ليس على الشيخ الفانى، ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم، ولا النساء شيء...[٢] . وشرط **المقوقس** للروم أن يخيروا، فمن أحب منهم أن يقيم على مثل هذا أقام على ذلك لازماً له مفترضاً عليه ممن أقام بالإسكندرية وما حولها من أرض مصر كلها، ومن

---

(١) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ١/١٦، بتلر: فتح العرب لمصر ١/٢٢٨.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ص ٧٠، أبو المحاسن: النجومالزاهرة ١/١٧.

أراد الخروج منها إلى أرض الروم خرج[1] . وأتيح **للمقوقس** أن يكاتب ملك الروم فى القسطنطينية بما حدث، حتى يرى رأيه، فإن وافق ما رآه **المقوقس**، وإلا فالأمرعلى ما كان عليه قبل الصلح، أى أن احتمال الحرب ما يزال قائماً، وحسب ما يشير به الإمبراطور!.

وبالفعل، فإن الإمبراطور لما وصله كتاب **المقوقس**، تعاظم الأمر واغتاظ، وكتب إلى **المقوقس** يقبح رأيه ويعجزه ويرد عليه ما فعل، ويقول فى كتابه: إنما أتاك من العرب اثنا عشر ألفا[2] ، وبمصر من بها من كثرة عدد القبط مالا يحصى، فإن كان القبط كرهوا القتال وأحبوا أداء الجزية إلى العرب واختاروهم علينا، فإن عندك بمصر من الروم بالإسكندرية ومن معك أكثر من مائة ألف معهم العدة والقوة، والعرب وحالهم وضعفهم على ما قد رأيت فعجزت عن قتالهم، ورضيت أن تكون أنت ومن معك من الروم فى حال القبط أذلاء، ألا تقاتلهم أنت ومن معك من الروم حتى تموت أو تظفر عليهم، فإنهم فيكم على قدر كثرتكم وقوتكم، وعى قدر قلتهم وضعفهم، فناهضهم القتال، ولا يكون لك رأى غير ذلك[3] .

ولم يكتف **هرقل** بهذا الذى رد به على **المقوقس** – على حد قول **ابن الحكم** – بل كتب بمثله إلى خاصة الروم وعامتهم بمصر، كما يظهر من قول **بتلر** أن **هرقل** فى آخر رسالته إلى **المقوقس** طلب منه أن يحضر إليه

---

(١) المصدران السابقان.

(٢) على ما جاء فى كثير من الروايات من أن المد دالذى أرسله الخليفة كان ثمانية آلاف وهو قول كثير من المؤرخين.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ص ٧١.

على عجل[1] ، ليطلع منه مباشرة على ما يجرى بمصر، ويحاسبه على تقصيره ووهنه.

وهنا يحاول **بتلر** – وهو من أهم من شغلوا بدراسة تاريخ فتح مصر – أن يؤكد على خيانة **المقوقس** من جديد، ويجد **لهرقل** العذر فى عدم فهم مضمون رسالة **المقوقس**، فيقول: وليس بعجيب أن يكون **هرقل** قد حار فى أمر تلك الكتب التى جاءته من **المقوقس** ، فإنها لا تبين إذا كان الصلح خاصاً بحصن بابليون، أو أنه كان صلحاً على ترك بلاد مصر جميعها حتى الإسكندرية للعرب، ولا تبين هل يبقى العرب فى البلاد بعد أخذ الجزية، أو يرحلون عنها، فهل كان معنى ذلك الصلح انتزاع مصر من دولة الروم وإسلامها لأعداء المسيحية ؟[2] .

فإذا كان **بتلر** يشارك **هرقل** عجبه من هذا الصلح، فإنا نعجب من كليهما لعدة أسباب:

الأول: أن **هرقل** نفسه كان بالأمس القريب قد غادر بلاد سوريا مودعاً بئيساً بعد أن أطاحت قوة المسلمين الفتية بمئات الآلاف من جنده فى عدة معارك متلاحقة وسريعة، فكيف به يلوم **المقوقس** كل هذا اللوم ويعنفه ؟.

الأمر الثانى: أن كلاً من **هرقل،وبتلر،** يجهلان مسألة الجزية، وهل يبقى المسلمون فى البلاد بعد تحصيلها أم يرحلون! وهل كانت مسألة

---

(١) فتح العرب لمصر ٢٢٩/١.

(٢) بتلر: نفس المرجع ٢٢٩/١.

الجزية التى فرضها المسلمون على أهل الشام ومن قبلهم الفرس تخفى على أحد؟.

والأمر الثالث: هو حيرة **هرقل** «**وبتلر**» فى أمر الصلح، وهل كان معناه نزع مصر من دولة الروم وإسلامها لأعداء المسيحية؟! على حد تعبير **بتلر**، فهل يخفى على أحد ماكاله الروم «الملكانيون» لأقباط مصر المسيحيين، وما ساموهم من خسف وإذلال، تمثل جميعه فى الطريقة التى حاول بها **المقوقس** نفسه إجبار القبط بها على اتباع مذهب سادته «المونوثيلى»[1] . فمن هو العدو الحقيقى للمسيحية الآن، الروم أم المسلمون؟!.

أما الأمر الرابع: الذى يزيد من دهشتنا، فهو أن الامبراطور ومن حذا حذوه لم يلتفتوا إلى المبررات التى ساقها **المقوقس** إليهم، وشرحها باعتباره شاهد الأحداث ولحظ الواقع.

حتى إنه قال حين فض كتاب **هرقل** وقرأه: والله إنهم (أى المسلمون) على قلتهم وضعفهم أقوى وأشد منا على كثرتنا وقوتنا، إن الرجل الواحد ليعدل مائة رجل منا..[2] ، «فهم لا يعبأون بأمر من أمور هذه الحياة الدنيا ولا متاعها، لا يطلبون منها إلا لقمة يسدون بها رمقهم، وشملة يسترون بها أبدانهم، فهم «قوم الموت» يرون ربحاً فى أن يقتلوا، لأنهم يرون فى ذلك الشهادة التى ينالون بها الجنة، فى حين أن الروم

---

(١) ينظر فى هذا: أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٧٢، ٧٣، بتلر: فتح العرب لمصر ٣/١، صموئيل تاوضروس: الأديرة المصرية العامرة ص ٢٤٢.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ص ٧١، بتلر: فتح العرب لمصر ٢٣٠/١.

يحبون متاع الحياة الدنيا ويحرصون عليه، ثم نبه على الإمبراطور قائلاً: لو رأيت هؤلاء العرب وبلاءهم فى القتال لعرفت أنهم قوم لا يغلبون، فليس لنا من سبيل خير من الصلح مع **عمرو** قبل أن يفتح حصن بابليون عنوة وتصبح البلاد غنيمة له»[1] .

وبناء على هذا الرفض الشديد من **هرقل** لتوقيع الصلح مع المسلمين، فقد بات على هؤلاء أن يشددوا حصارهم على بابليون، وأن يتابعوا السرايا والطلائع فى الجهات المختلفة لتأمين موقفهم فى الحصار. أما عن الروم، فإن المحاصرين بالحصن لم تتوافد إليهم الإمدادات التى كانوا يؤملونها، وانخفض منسوب الماء فى النيل، على أن هذا لم يمنعهم من التسلل فى طلعات سريعة لإيذاء المسلمين، وبخاصة وهم فى أثناء أدائهم للصلوات.

وفى تلك الأثناء كان الروم قد أعدوا قواتهم من جديد فى الشمال «الوجه البحرى» بقيادة **تيودور**، وقرروا مهاجمة المسلمين المحاصرين لبابليون، ولم ينتظر **عمرو** قدومهم إليه، وإنما خلف حامية على حصار الحصن، ثم انطلق بجنده حتى التقى بقوات الروم على مقربة من «سمنود»، لكنه لم يستطع إحراز النصر عليهم فى هذه البلاد التى كانت تحميها الخنادق والترع التى عوقت مهمة الخيل العربية. فترك **عمرو** عدة محارس من جنده، وعاد إلى حصار الحصن.

---

(١) بنظر: نفس المرجع ٢٣٦/١.

صلح بابليون: (أخلاقيات الغالب وحقوق المغلوب)

لم يبق أمام المسلمين من سبيل سوى أن يقوموا بعمل حاسم لاقتحام الحصن، فصاحوا وكبروا، وازدادت عزيمتهم على الاستبسال فى القتال، وهنا اتخذ **الزبير بن العوام** أسلوباً فدائياً قصد به إنهاء هذا الحصار الذى طال أمده، فوضع سلما على سور الحصن أثناء الليل وصعد عليه ثم كبر، فتوافد إليه المسلمون. وخارت بذلك عزائم الروم، فاجتمع كبراؤهم على عجل فى أول الصباح الباكر وسألوا **عمراً** الصلح.

وكان الذى تولى ذلك هو **«جورج»** قائد جنود الحصن، إذ طلب من **عمرو** أن يسلم له على أن يأمن كل من هناك من الجند على أنفسهم. فقبل **عمرو** منهم وصالحهم على أن يخرج الجند من الحصن فى ثلاثة أيام فينزلوا بالنيل ويحملوا ما يلزم لهم من القوت لبضعة أيام، ويبقى الحصن وما فيه من الذخائر وآلات الحرب بيد المسلمين. وهكذا انتهى الحصار الذى دام لمدة سبعة أشهر بشكل أذل للروم مما كان **المقوقس** قد رآه من قبل بعد بضعة أسابيع من بداية الحصار!.

وقد جاء فى نص هذا الصلح: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى **عمرو بن العاص** أهل مصر من الأمان على أنفسهم وملتهم وأموالهم وكنائسهم وصلبهم وبرهم وبحرهم، لايدخل عليهم شىء من ذلك ولا ينتقض، ولا تساكنهم النوبة، وعلى أهل مصر أن يعطوا الجزية إذا اجتمعوا على هذا الصلح وانتهت زيادة نهرهم خمسين ألف ألف، وعليهم ما

جنى لصوتهم[1] . فإن أبى أحد منهم أن يجيب رفع عنهم من الجزية بقدرهم، وذمتنا ممن أبى بريئة، وإن نقص نهرهم من غايته إذا انتهى رفع عنهم بقدر ذلك ، ومن دخل فى صلحهم من الروم والنوبة فله مثل مالهم، وعليه مثل ما عليهم، ومن أبى منهم واختار الذهاب فهو آمن حتى يبلغ مأمنه أو يخرج من سلطاننا، عليهم ما عليهم أثلاثاً، فى كل ثلث جباية ثلث ما عليهم. على ما فى هذا الكتاب عهد الله وذمة رسوله وذمة الخليفة أمير المؤمنين، وذمم المؤمنين، وشهد عليه **الزبير وعبد الله ومحمد ابناه**، وكتب **وردان وحضر**[2] . فكانت هذه الجزية مقررة على كل من بلغ الحلم، ليس على الشيخ الفانى ولا على الصغير الذى لم يبلغ الحلم، ولا النساء شيء[3] .

ولنا فى نصوص هذا الصلح عدة ملحوظات ، منها:

أولاً: أنه ككل المصالحات التى أبرمها المسلمون من قبل، يأتى من منطلق العدل الإسلامى الذى يشمل جميع الناس فى المجتمع فلا يحتاج إلى من يملى شروطاً للصلح، أو يقنن لمعاهدة.

ثانياً: يتيح الصلح لأهل مصر ومن يبقى معهم من خارجها حرية التدين، وحماية المقدسات والأرواح والممتلكات.

---

(١) اللصوت: اللصوص

(٢) تاريخ الطبرى ٤/١٠٩، النجوم الزاهرة ١/٢٤.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ص ٧٠.

ثالثاً: حتى الروم الذين وقفوا عقبة أمام المسلمين وكانواحرباً لهم، سمح لهم بالانسحاب من الحصن سواء إلى داخل مصر أم إلى خارجها لمن لم يشأ المقام، دون أن تقام لهم المذابح أو يتشفى منهم جزاء معاداتهم للمسلمين طول مدة الحصار.

رابعاً: جاءت الجزية التى قررها المسلمون زهيدة بالقياس إلى ما كان الروم يحببونه من القبط من قبل، ثم يسر لهم دفعها أقساطا.

خامساً: أعفى من آداء الجزية الشيوخ والأطفال والنساء، مما يؤكد على أن تحصيلها لم يكن مقصوداً منه الإثراء على حساب الشعوب.

سادساً: كانت هذه المعاهدة أول معاهدة بين المسلمين والروم بمصر، وسميت بمعاهدة بابليون، أو صلح بابليون، ونلاحظ أن هذه المعاهدة حددت مركز المصريين أى القبط فقط – أما فيما يتعلق بالبيزنطيين، فقد اشترط كيرس ضرورة موافقة الامبراطور **هرقل**، وإلا عادت الحالة بين الروم والعرب إلى ما كانت عليه[1] .

وبسقوط بابليون – القلعة الحربية الحصينة للبيزنطين فى مصر – لم يبق أمام **عمرو** إلا أن يسير إلى الإسكندرية العاصمة والملجأ البحرى للروم، حتى يقضى على كل أثر لهم، إذ لم يستسلم الروم بعد سقوط بابليون، بل أخذوايجتمعون من جديد لقتال المسلمين، وتأتيهم المراكب بالأمداد من القسطنطينية، حيث كانت توجيهات **هرقل للمقوقس** بأن يجمع كل من عنده بمصر من الروم – وليسوا بقلة – ويقاتل بهم المسلمين.

---

(١) سيدة إسماعيل كاشف (الدكتورة): مصر فى عصر الولاة ص ١٩، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٨٨م.

وفى سبيل ذلك أصبح لزاماً على **عمرو** أن يترك الفسطاط ويصعد شمالاً بغرب حتى يقضى على هذه الحشود البيزنطية التى تهدد وجوده فى الفسطاط. فالتقى بأول هذه الزحوف فى نقيوس[١] وهزمهم، وفرق مراكبهم التى كانت بالنيل هناك. ثم أرسل أحد قواده - شريك بن سمى - يتعقب فلول المهزومين، فأدركهم عند المكان الذى سمى «كوم شريك» لكنه فوجىء بكثرة جند الروم، فأرسل إلى **عمرو** يستمده، فأرسل إليه الأمداد بسرعة.

وسار **عمرو** بمن معه من جند المسلمين قاصداً الإسكندرية، ففاجأته جموع الروم مرة أخرى عند «سنطيس»[٢] على بعد ستة أميال من دمنهور. ودارت بينهم وقعة شديدة قهر فيها الروم وانتصرالمسلمون، وفر جند الروم حتى نزلوا بـ«الكريون» - آخر سلسلة الحصون التى كانت بين بابليون والإسكندرية - ووردت عليهم الأمداد من القسطنطينية، فاعتصموا بالكريون بقيادة «تيودور» واقتتل الفريقان بضعة عشر يوماً[٣] ، حتى كسر المسلمون الروم واضطروهم إلى الإسكندرية التى لم يعد أمام المسلمين من عائق فى الوصول إليها.

---

(١) بتلر: فتح العرب لمصر ١/٢٤٩ . ونقيوس: هى التى كان بطريقها يسمى حنا النقيوسى، وله كتاب فى تاريخ مصر، تناول فيه فتح المسلمين لها. وتقع نقيوس الآن فى مركز تلا بالمنوفية (د. سيدة كاشف: مصر الإسلامية وأهل الذمة ص٣٠).

(٢) سماها ابن عب دالحكم: سلطيس، وذكر تلك الوقعة التى كانت فيها ص ٧٣ .

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ص ٧٣، بتلر : نفس المرجع ١/٢٥٢.

فانطلق عمرو بجنده إلى الإسكندرية التى لاذ بها كل من بقى من الروم بمصر. وكانت مدينة حصينة مسورة، لا يتم حصارها بشكل محكم، حيث جهتها البحرية متصلة بالشاطىء الذى ترد إليه الإمدادات من بيزنطة، وكانت الترعة وبحيرة مريوط تحميانها من الجنوب، ومن غربها ترعة الشعبان، فلم يبق للمسلمين أن يدخلوها إلا من شرقها وجنوبها الشرقى[١] .

ولم يكن أمام المسلمين إلاأن يطاولوا الروم فى الحصار، فاستبطأ الخليفة **عمر** الفتح، وكتب إلى **عمرو** فى ذلك يستحثه[٢] ، وفى ذات الوقت كانت الأمور فى القسطنطينية تسير من سىء إلى أسوأ، حيث مات **هرقل** ، فى فبراير ٦٤١هـ[٣] ، وخلفه ابنه **قسطنطين الثانى**، وهو حدث، وتولت الوصاية عليه أمه، وطائفة من القواد، فاضطربت أحوال القسطنطينية، وتأثرت الإسكندرية بذلك، وتبدلت أحوالها، وقلت إمدادات الروم لها.

ومن جهة المسلمين ، فإنه لما استحدثهم الخليفة على سرعة الفتح، تهيأوا وشنوا حملة صادقة، بقيادة **عبادة بن الصامت**، زلزلت منها قلوب الرم، فطلبوا الصلح، فأجابهم المسلمون إليه[٤] .

(١) شكرى فيصل (الدكتور): حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول ص ١٢٤ ،طبعة رابعة،., بيروت ١٩٧٤م.

(٢) عبد الشافى محمد عبد اللطيف، محمد جبر أبو سعدة (الدكتوران): التاريخ الإسلامى من ظهورالإسلام حتى سقوط الدولة الأموية ص ١٤٠ القاهرة ١٩٨٧م.

(٣) شكرى فيصل: حركة الفتح الإسلامى ص ١٢٥، ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٨.

(٤) عبد الشافى وأبو سعدة (الدكتوران): التاريخ الإسلامى من ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية ص ١٤٠.

صلح الإسكندرية:

انتهى الأمر بين المقوقس وعمرو بن العاص فى بابليون إلى هذه المعاهدة التى اصطلح المحدثون على تسميتها بمعاهدة الإسكندرية ٨، نوفمبر ٦٤١هـ، لأن أكثر شروطها يتصل بالإسكندرية من نحو، ولأن هذه التسمية تميزها عن معاهدة بابليون الأولى من نحو آخر[1] . وجاءت شروط معاهدة الإسكندرية على النحو التالى:

أولاً : الجزية للذين يؤثرون البقاء فى ظلال المسلمين.

ثانياً: أن تعقد هدنة لنحوأحد عشر شهراً بين الطرفين، يكف فى أثنائها الروم والعرب عن القتال.

ثالثاً: جلاء حامية الروم عن الإسكندرية حاملين أمتعتهم وأموالهم.

رابعاً: ألا يعود جيش من الروم إلى مصر أو يسعى لردها.

خامساً: ألا يستولى المسلمون على كنائس المسيحيين أو يتدخلوا فى أمورهم.

سادساً: أن يباح لليهود الإقامة فى الإسكندرية آمنين.

سابعاً: لضمان نفاذ هذه الشروط نصت المعاهدة على أن يأخذ المسلمون مائة وخمسين من جند الروم وخمسين من غير الجند كرهائهن حتى إتمام نفاذ الهدنة.

---

(١) شكرى فيصل: حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول ص ١٢٦، سيدة كاشف: مصر فى عصر الولاة ص ٢٠.

وهكذا صار القبط بمصر ومن بقى معهم من الروم ذمة للمسلمين[١]، يؤدون الجزية عن رقابهم، والخراج عن أرضهم[٢] . ويتجاهل بعض المستشرقين[٣] الفرق بين الجزية والخراج، فيوردون فى هذا المقام عبارات عامة يوهم ظاهرها أن المسلمين فرضوا على القبط الجزية والخراج معاً، طلباً لزيادة ما يدخل إلى بيت المال، حتى وإن كان بازدواجية الضرائب.

لكن المنصفين منهم يفهمون الفرق بين الضريبتين، ومقدار الرفق فى تحصيلهما؛ يقول **السيرتوماس أنولد**[٤] فى الجزية:..... فكان على الموسر أن يدفع فى السنة ثمانية وأربعين درهماً، وعلى المتوسط الحال أربعة وعشرين درهماً، بينما يؤخذ من المحتاج كالحراث الذى يعمل بيده اثنا عشر درهماً...، وكانت الضريبة (الجزية) لا تؤخذ إلا من الذكور القادرين، ولا تجبى من النساء والصبيان، وكذلك كان يستثنى من أداء الجزية المسكين الذى يتصدق عليه، والشيخ الفقير الفانى الذى لا يستطيع العمل، كما أعفى الأعمى والأعرج والمريض الذى لا يرجى شفاؤه، وأعفى المترهبون الذين فى الديارات، وأهل الصوامع، إذا كانوا يعيشون على

---

(١) قدامة بن جعفر: الخراج وصناعة الكتابة ص ٣٣٧، تاريخ الكامل ٢/٣٩٧.

(٢) الخراج وصناعة الكتابة ص ٣٣٧.

(٣) مثل باتلر فى كتابه: فتح العرب لمصر ١/٢٧٨، حيث يقول: فكان على أهل مصر فوق هذه الجزية أن يدفعوا الأموال عن أرضهم وعقارهم! وستيفن رنسيمان فى كتابه: تاريخ الحروب الصليبية، حيث يقول: أما أقباط مصر، فإنهم أثاروا بعض النقد وما كان عندهم من عداوة أكثر ما وجهوها إلى الغازى المشهور بالقسوة، وهو عمرو بن العاص، وإلى ما عرف به من الخيانة والابتزازات المالية... وهكذا!

(٤) الدعوة إلى الإسلام ص ٧٨، ونفس المعنى لابن بطريق فى تاريخه المجموع ص ٢٤.

صدقات الموسرين، أما إن كانوا قادرين على العمل، أو كان لهم غنى ويسار أخذت منهم الجزية. وفى ذلك أيضاً، يقول **غوستاف لوبون**[1] :... فقد عرض **عمرو** على المصريين حرية دينية تامة، وعدلاً مطلقاً، واحتراماً للأموال، وجزية سنوية ثابتة لا تزيد على خمسة عشر فرنكاً عن كل رأس بدلاً من ضرائب قياصرة الروم الباهظة، فرضى المصريون طائعين شاكرين بهذ الشروط.

(١) حضارة العرب ص ١٣٥، وينظر نفس المعنى عند: أرنولد: الدعوة إلى الإسلام ص ٧٩، كيرك: موجز تاريخ الشرق الأوسط ص ٢٩، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ص ٤١.

المبحث الرابع

معاملة المسلمين للأقباط بعد أن صاروا ذمة[1]

أرى أنا لم نبعد كثيراً عن شروط معاهدة الإسكندرية، تلك الشروط التى جاءت فى مجملها فى صالح المغلوبين لا الغالب؛ فقد أتاحت للقبط والروم حريتهم الدينية، وأعطت الروم مهلة طويلة يتهيأون فيها للخروج إلى بلادهم الأصلية، ويلتزم فيها المسلمون مواقعهم، فلا يهاجمون الروم، وأبيح للجاليات غير الرومية أو القبطية كاليهود حرية الإقامة والعقيدة، أكثر من ذى قبل.

والتزم الفاتح المسلم إزاء هذا كله بتنفيذ ما اشترطه، مع أنه الغالب، ولم يتشفى، أو يعمل السيف فيمن قاوموه وحاربوه، على غرار ما صنع الفرس من قبل بنصارى الشام ومصر، ولا الروم بيهود الشام، ولا الصليبيون من بعد بالمسلمين واليهود فى بلاد الشام وفلسطين.

«وقد بالغ العرب (المسلمين) فى الوقوف عند حد هذه الشروط والتقيد بها، فأحبهم المصريون الذين ذاقوا الأمرين من ظلم عمال قياصرة القسطنطينية النصارى، وأقبلوا على اعتناق دين العرب (المسلمين) ولغتهم أيما إقبال. ونتائج مثل هذه لا تنال بالقوة كما قلت غير مرة ولم يظفر بمثلها أحد ممن ملك مصر من الفاتحين قبل العرب»[2] .

---

(١) رأيت أن أجعل جل اعتمادى فى هذا الموضوع على كتابات المستشرقين أنفسهم ما دام رأى المؤرخين المسلمين فى ذلك معلوماً سلفاً، وليكون قول الغربيين رداً على أنفسهم، وشهادة صدق لصالح تاريخ المسلمين.

(٢) غوستاف لوبون: حضارة العرب ص ١٣٥، رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ص ٤٤.

«وكان **عمرو بن العاص** سمحاً رحيما نحو أهل الإسكندرية، مع تلك الخسارة التى أصيب بها العرب، ولم يقس عليهم، وصنع ما يكسب به قلوبهم، وأجابهم إلى مطالبهم، وأصلح أسدادهم (سدودهم) وترعهم، وأنفق الأموال الطائلة على شئونهم العامة»[1] .

ويحكى **ستيفن رنسيمان** عن شعور أصحاب المذاهب النصرانية المتهرطقة فى الشام ومصر بعد تغير الحكام الروم بحكام المسلمين، فيقول: إذ أن تغيير الحكام جلب إليهم الراحة والسرور، فالبطريرك اليعقوبى بأنطاكية **ميخائيل السريانى** الذى ألف كتابه بعد خمسة قرون زمن الممالك اللاتينية، إنما يعكس ما كان لقومه من أثر سابق حينما روى: «أن الله المنتقم، الواحد القهار، أثار من الجنوب أبناء **إسماعيل** لإنقاذنا من أيدى الرومان» . وأضاف: «أن هذا الخلاص لم يكن ميزة هينة لنا» . وردد النساطرة هذه العواطف، إذ روى المؤرخ النسطورى المجهول بأن: «قلوب المسيحيين انشرحت لسيادة العرب، فليزد الله فى قوة هذه السيادة، وليجعلها زاهرة»[2] .

«وروت بعض المصادر أن رهبان وادى النطرون عندما سمعوا بأن أمة جديدة قد ملكت البلاد – أى مصر – سار منهم إلى **عمرو بن العاص** سبعون ألفاً، حفاة الأقدام ، بثياب رثة يحمل كل منهم عكازاً....! وطلبوا منه أن يمنحهم حريتهم الدينية، ويأمر برجوع بطريركهم من المنفى،

---

(١) حضارة العرب ص ٢١٩.

(٢) تاريخ الحروب الصليبية ص ٤٠.

فأجاب عمرو طلبهم، وأمر بعودة البابا بنيامين الذى كان لا يعرف عن الوطنية أكثر مما يعرفه أصحاب العكاكيز من الرهبان السذج الذين حسبوا أن جلاء الروم عن بلادهم واستيلاء العرب عليها لا يزيد فى نظرهم عن استبدال بطريرك بآخر!»[١] .

ومن كل هذا نستخلص عدة ملاحظات مهمة منها:

١ - أن النصارى فى مصر كانوا قد تركوا المدن والوادى، وتقوقعوا فى الجبال والبرارى فراراً من بطش الروم بهم فى أيام سيادة بيزنطة، وعسف الفرس بهم فى أيام احتلالهم لمصر[٢] .

٢ - أن النصارى بما فيهم كبار باباواتهم وقساوستهم نسوا - فى خلال فترة الإبعاد والعزلة الطويلة - وطنيتهم، وانتماءهم لمصر، ولم يكونوا يحلمون سوى بحكومة تتيح لهم نوعاً من الحرية والأمان بصرف النظرعن هويتها.

٣ - كان النصارى بمصر ينظرون إلى الروم على أنهم غزاة محتلون لبلادهم، وكانت سياسة الروم فيهم دينية كانت أم اقتصادية مطابقة لرؤيتهم تلك تماما.

٤ - فى مقابل ذلك أتاح الإسلام لنصارى مصر من الحرية الدينية والوطنية والعدالة الاجتماعية ما لم يتح لهم شىء منه فى خلال فترة الحكم البيزنطى، أو الغزو الفارسى.

---

(١) القمص صموئيل تاروضروس السريانى: الأديرة المصرية العامرة ص ٧٥.

(٢) ينظر نفس المعنى عند رنسيمان فى كتابه: تاريخ الحروب الصليبية ص ٤١، وبتلر فى كتابه: فتح العرب لمصر جـ١، فى فصل سماه «الاضطهاد الأعظم للقبط على يد قيرس» ص ١٤٩ - ١٧١، الأنبا يوساب: تاريخ الاباء البطارقة ص ٤٩.

٥ - وعليه، فلم يكن النصارى يحلمون بما نالوه من حرية دينية وعدالة اجتماعية فى ظل المسلمين، ولم يكن شيء من هذا يخطر ببالهم، حتى ساق المسلمون إليهم كل هذه الامتيازا، فكانت - فى نظرهم - ضرباً من الخيال.

٦ - خلَّص المسلمون كنائس النصارى وأديرتهم من أيدى الروم المغتصبين!.

وتأييداً لكل ما سبق، يعود **القمص صموئيل** إلى التذكير بما حل بالنصارى على أيدى سادتهم من الروم، فيقول: «لم ينج الوادى - أى النطرون - لبعده الساحق من مساوئ الحاكم الظالم، كما لم يحرم أيضاً من عدالته، ففى العصر البيزنطى المسيحى، بطش **لوسيوس البطريرك الأريوسى** الدخيل برهبان البرية الذين رفضوا مبادئه الوخيمة، كما عمل **كيروس** الأسقف الخلكيدونى على التنكيل بالرهبان الذين أعرضوا عن سماع **طومس لاون البغيض**...»[١] ، «ولما فتح العرب مصر سنة ٦٤٠م أباح **عمرو بن العاص** حرية العبادة، وتودد إلى الرهبان، فأعفاهم من الجزية، وأراحهم من جميع المتاعب، ونشر العدالة بين جميع الناس... إلخ»[٢] .

ويؤيد **ستيفن رنسيمان** هذا الكلام عن حرية أهل الذمة فى ظل دولة المسلمين، فيقول: «... على حين أنه استمر بناء عدد كبير من الكنائس

---

(١) الأديرة المصرية العامرة ص ٩١.

(٢) المرجع السابق ص ٩٢.

ومعابد اليهود، والواقع أن الفقهاء المسلمين المتأخرين أجازوا للذميين إقامة المبانى طالما لم ترتفع عن مبانى المسلمين...إلخ»[(١)] . ثم يؤكد على ذلك من جديد القمص **صموئيل السريانى**، حين يقول: «وعندما تغير الوضع السياسى بدخول العرب المسلمين – استرد القبط كنيسة «مار مينا» والدير الملحق بها من أيدى البيزنطيين الذين اغتصبوها أكثر من مرة...»[(٢)] .

لكن على الرغم من كل ماسبق، نرى اتجاهاً لدى الغربيين يؤكد على أن نصارى الشام ومصر إنما أذعنوا لسلطان المسلمين بسبب ضعف بيزنطة عن الدفاع عنهم! لا بسبب سماحة المسلمين وعدالتهم، ومن ذلك قول**رنسيمان**: «قبل المسيحيون فى الشرق عن طيب خاطر سيطرة سادتهم المسلمين، ولم يكن فى وسعهم أن يفعلوا غير ذلك، فلم يكن ثمة إلا احتمال ضئيل فى أن تنهض بيزنطة من جديد، مثلما حدث زمن الحرب الفارسية لإنقاذ الأماكن المقدسة!»[(٣)] .

فهو بهذا يتعامى عن حقيقة مهمة هى أن السكان فى الشام وفى مصر قد أدركوا الفارق الشاسع بين حكم المسلمين وحكم غيرهم من فرس أو روم، فحتى لو سعت بيزنطة من بعد لاستخلاص بلاد الشرق لما وجدت قبولاً لدى هؤلاء السكان، ولامن يرحب بعودة سلطانها، وهذا مايشير إليه **غوستافلوبون**، فيقول: «وماعجز الأغارقة والفرس والرومان عنه فى الشرق، قدر عليه العرب بسرعة، ومن غير إكراه، ومن ذلك أن مصر التى

---

(١) تاريخ الحروب الصليبية ص ٤٢.

(٢) الأديرة المصرية العامرة ص ٢٤٢.

(٣) تاريخ الحروب الصليبية ص ٤٠.

كان يلوح أنها أصعب أقطار العالم إذعاناً للمؤثرات الأجنبية نسيت فى أقل من قرن واحد مر على افتتاح **عمرو بن العاص** لها ماضى حضارتها الذى دام نحو سبعة آلاف سنة، معتنقة ديناجديداً، ولغة جديداً، وفنا جديداً، اعتناقا متينا...»[1] .

ويؤكد **سيديو** على هذا المعنى أيضاً، فقول: «... وهذا إلى أن السكان كانوا يرضون من غير تذمر بسادتهم الجدد - المسلمين - الذين أبدوا من الإيفاء بالعهود ما أبدوا، مبتعدين عن كل جور، حتى إن إسلام الواحد منهم كان يكفى لدخوله فى حظيرة غالبيه...»[2] .

وفى ختام حديثنا فى هذا الموضوع، نذكر فقط أولئك الذين يتباكون على ضياع النصرانية فى مصر، بأن المسلمين لم يُكرهوا أحداً على ترك دينه، أو اعتناق الإسلام، من باب أن ﴿ **لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ** ﴾ ومن باب أن ﴿ **لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ** ﴾ فالأمر فى الإسلام لا يخرج عن مجرد الدعوة بالحسنى، ﴿ **فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ** ﴾، فلا يفوتنا هنا أن نذكرهم، وهم أبناء الصليب وأصحابه بما فعلوه باليهود، فى بداية حملاتهم الصليبية على بلدان الشرق الإسلامى، وعلى لسان واحد منهم، هو: **ول ديورانت** الذى قال:[3] : «ولما دعا **البابا أربان** الثانى إلى الحرب الصليبية الأولى فى عام ١٠٩٥م ظن بعض المسيحيين أنه يحسن بهم أن يقتلوا يهود أوربا قبل أن يخرجوا لقتال الأتراك فى

(١) حضارة العرب ص ٥٦٣.

(٢) تاريخ العرب العام ص ١١٦.

(٣) قصة الحضارة ١٤/٨٥.

أورشليم، فلما قبل **جودفرى البويلونى** قيادة الحملة أعلن أنه سيثأر لدماء المسيح من اليهود، ولن يترك واحداً منهم حياً، وجهر رفاقه بعزمهم على أن يقتلوا كل من لايعتنق المسيحية من اليهود. وقام أحد الرهبان يثير حماسة المسيحيين أكثر من هذا، فأعلن أن نقشاً على الضريح المقدس فى أورشليم يجعل تنصير جميع اليهود فريضة أخلاقية على جميع المسيحيين...».

« ولما اقترب بعض الصليبيين من ترير، استغاث من فيها من اليهود بالأسقف **إجلبرت**، فعرض عليهم أن يحميهم عى شريطة أن يعمدوا، ورضى معظم اليهود بهذا الشرط، ولكن بعض النساء قتلن أطفالهن، وألقين بأنفسهن فى نهر الموزل – أول يونية سنة ١٠٩٦م –. وفى مينز خبأ روثارد كبير الأساقفة ١٣٠٠ يهودى فى سراديبه، ولكن الصليبيين اقتحموها عليهم، وقتلوا منهم ١٠١٤، واستطاع الأسقف أن ينقذ عدداً قليلاً منهم بإخفائهم فى الكنيسة الكبرى – ٢٧ مايو سنة ١٠٩٦م –، وقَبِل التعميد أربعة من يهود مينز، ولكنهم انتحروا بعده بقليل!...»[1] .

ويستطرد **ول. ديورانت** فى تفصيل تلك المذابح والاضطهادات التى ألحقها أبناء الصليب باليهود عبر أوربا كلها، فيقول: «وأنذرت الحرب الصليبية الثانية بأنها ستفوق الحرب الأولى من هذه الناحية، فقد أشار **بطرس المبجل** القديس رئيس دير كلونى على **لويس السابع** ملك فرنسا أن يبدأ بمهاجمة اليهود الفرنسيين، وقال له: «لست أطالبك بأن تقتل أولئك

---

(١) قصة الحضارة ١٤/٨٦.

الخلائق الملاعين.. لأن الله لا يريد أن يمحوهم من الوجود، ولكنهم يجب أن يقاسواأشد ألوان العذاب كما قاساه **قائين** قاتل أخيه، ثم يبقوا ليلاقوا هواناً أقسى من العذاب، وعيشاً أمر من الموت»[1] . هذا فى فرنسا، وأما فى ألمانيا فقد خرج راهب فرنسى من ديره بغير إذن، وأخذ يدعو إلى ذبح كل اليهود فى ألمانيا»[2] .

وغير ذلك كثير، عند كثيرين ممن أرخوا للحروب الصليبية، وطبعاً كل هذا بخلاف ما وقع للمسلمين فى القدس عندما دخلها الصليبيون وأسالوا فيها الدماء أنهاراً والجثث أكواما، دون أن يراعوا لقداسة المدينة حرمة، ولا لحقوق الإنسان قداسة! فكيف بهم يتهجمون على فتوحات الإسلام، ونبل المسلمين ؟ وشتان بين الهدف والدافع والوسيلة فى أعمالهم الدنسة وسلوكيات المسلمين الرفيعة فى كل بلد فتحوه.

وأرى أنه يلزمنا هنا أيضاً أن نذكرهم بما اقترفوه فى حق الشعوب التى خضعت لسلطانهم قبل الإسلام، وما ساموهم به من خسف وذل. وذلك ليس بقصد المقارنة بين حكمهم فى هذه البلدان وحكم المسلمين، فلا مجال للمقارنة، إنما بقصد أن نعرى أفعالهم وأفكارهم الخبيثة فقط، فلا يزال التاريخ يذكر أن أهل سورية جاءوا مرة للحاكم الرومانى يطلبون إليه أن يخفف عنهم الضرائب، فرد عليهم بقسوة وفظاظة متأسفاً على أنه لا يستطيع أن يفرض عليهم ضريبة على الهواء الذى يتنفسونه![3] .

---

(١) قصة الحضارة ١٤/٨٧.

(٢) نفس المرجع ص ٨٨.

(٣) محمد صبيح: مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية ص ١٧٠.

وفى مصر يستكثر الحاكم الرومانى فى روما ما يرسله إليه حاكمها من قِبَله من ضرائب، حتى ليقول له: إنى لم أرسلك لسلخ الشاة بل لجذها![1] ، فقد كانت الضرائب باهظة، كثيرا ما يضطر الأهالى إلى الهروب بسببها، وترك مزارعهم وأهليهم، نظراً لعدم قدرتهم عى دفع تلك الضرائب المتعددة، والتى كانت تفرض حتى على الأموات، ليدفعها الأحياء!.

لكل هذا، رحب المصريون بالحكومة الإسلامية التى انقذتهم، وحفظت لهم حياة حرة كريمة، فلما حاول الروم بعد سنين قليلة من فتح الإسكندرية استعادتها بحملة **مانويل الخصى**، ورأى هذا عزوف المسيحيين بها عن مساعدته، وعدم اكتراثهم بما جاء له، من محاولة إعادة البلاد إلى حظيرة الروم، لما رأى ذلك عزف عن رأيه، ورجع إلى القسطنطينية بحراً[2] .

ويكفينا – هنا – أن نورد عبارة الدكتور **غوستاف لوبون** بنصها، لتبين حقيقة الواقع الإسلامى فى مصر، ذلك الواقع الذى جعل القبط لا يرحبون بعودة سادتهم القدامى «الروم» إلى مصر، فيقول بعد أن ساق شروط الصلح بين المسلمين والروم بمصر: «فرضى المصريون طائعين شاكرين بهذه الشروط، دافعين الجزية سلفاً، وقد بالغ العرب (المسلمين) فى الوقوف عند حد هذه الشروط، والتقيد بها، فأحبهم المصريون الذين ذاقوا الأمرين من ظلم عمال قياصرة القسطنطينية النصارى، وأقبلوا على اعتناق

---

(١) أبو اليسر فرح (الدكتور): مصر فى عصرى البطالمة والرومان ص ٦٠ – ٦٤.

(٢) ستيفن رنسيمان: تاريخ الحروب الصليبية ص ٣٩.

دين العرب ولغتهم أيما إقبال. ونتائج مثل هذه لا تنال بالقوة كما قلت غير مرة، ولم يظفر بمثلها أى ممن ملك مصر من الفاتحين قبل العرب»[1] .

ثم يعود فيعلل لذلك من جديد بقوله: «وللفتوح العربية طابع خاص، لا تجد مثله لدى الفاتحين الذين جاءوا بعد العرب، وبيان ذلك أن البرابرة الذين استولوا على العالم الرومانى والترك وغيرهم، وإن استطاعوا أن يقيموا دولاً عظيمة، لم يؤسسوا حضارة، وكانت غاية جهودهم أن يستفيدوا بمشقة من حضارة الأمم التى قهروها، وعكس ذلك أمر العرب الذين أنشأوا بسرعة حضارة جديدة كثيرة الاختلاف عن الحضارات التى ظهرت قبلها، والذين تمكنوا من اجتذاب أمم كثيرة إلى دينهم ولغتهم، فضلاً عن حضارتهم الجديدة، واتصلت بالعرب أمم قديمة كشعوب مصر والهنود، واعتنقت معتقدات العرب وعاداتهم وطبائعهم وفن عمارتهم، واستولت بعد ذلك الدور أمم كثيرة على الأقطار التى فتحها العرب، فظل نفوذ العرب فيهاثابتاً، ويلوح لنا رسوخ هذا النفوق إلى الأبد فى جميع البقاع الآسيوية والإفريقية التى دخلوها، والتى تمتد من مراكش إلى الهند، والأسبان وحدهم هم الذين استطاعوا أن يتخلصوا من الحضارة العربية، ولكنهم لم يصنعوا هذا إلا ليقعوا فى الانحطاط العضال...إلخ»[2] .

وإنى وإن كنت لا أشك فى حسن نية غوستاف لوبون، وصدقه فى الحديث عن المسلمين وحضارتهم، إلا أننى أود فقط أن أصوب عبارته

---

(١) حضارة العرب ص ١٣٦.

(٢) حضارة العرب ص ١٣٦.

الأخيرة، التى يقول فيها: «والأسبان وحدهم هم الذين استطاعوا أن يتخلصوا من الحضارة العربية، فالواقع أن الأسبان تخلصوا من الحكومة الإسلامية، وعمدوا إلى التخلص من الجنس العربى المسلم نفسه، لكن لم يتخلصوا من حضارة المسلمين، لأن شواهدها المادية ووثائقها ما تزال، وستبقى مهما توالت السنون، ومكتبات الغرب وخزائنه ملأى بتراث المسلمين وحضارتهم، فالحضارات لا تنمحى بامحاء حكوماتها، وإنما قانون الحضارات أنها دائماً تتلاقى وتتواصل وتأخذ من بعضها البعض.



المبحث الخامس
مكتبة الإسكندرية ومسألة إحراقها

بقى لناقبل أن ننهى بحثناهذا أن نشير فى عجالة إلى موضوع مكتبة الإسكندرية القديمة، التى كانت بها منذ عصر الرومان، وهو موضوع وإن كان لا يستحق – من الناحية التاريخية – أن نعيد القول فيه، لكثرة ما كتب عنه، ولضعف سنده فى الأصل، لكنه من الناحية الحضارية يلزمنا أن نذكر به فقط، وندحض الأصل الذى قام عليه – حينما نسب أمر إحراقها إلى المسلمين – ما دمنا بصدد الحديث عن فتح مصر.

ولن نناقش هذاالأمر طويلاً، حيث قد حاز أكبر قد من النقاش والبحث، لكن سنوجزه فى عدة نقاط هى:

أولاً: دعاوى إحراق المسلمين للمكتبة عند الفتح.

ثانياً: تفنيد هذه الدعاوى وإثبات بطلانها من الأساس.

ثالثاً: تاريخ المكتبة ومتى أحرقت، ومن الذى أمر بإحراقها فى الأصل.

فبالنسبة للنقط الأولى، فإن دعوى إحراق المسلمين للمكتبة لم تأت إلا من خلال قصة أوردها **أبو الفرج**، المعروف **بابن العبرى**، ونقلها عنه بعد ذلك **أبوالفدا**. وملخص القصة أنه كان رجل من أهل الإسكندرية زمن الفتح الإسلامى يدعى (**حنا الأجرومى**) من قساوسة القبط، ولكنه أخرج من وظيفته بعدما نسب إليه زيغ فى عقيدته[(١)] ، وكان عزله على يد مجمع من الأساقفة انعقد فى حصن بابليون، فاتصل ذلك الرجل **بعمرو بن**

---

(١) تاريخ مختصر الدول ص ١٧٥، بتلر: فتح العرب لمصر ٢/٣٤٩.

العاص، ولقى عنده حظوة، لما توسم فيه صفاء ذهنه، وقوة عقله، وغزارة علمه، فلما أنس الرجل من **عمرو** ذلك الإقبال، قال له يوماً: لقد رأيت المدينة كلها «أى الإسكندرية»، وختمت على ما فيها من التحف، ولست أطلب إليك شيئاً مما تنتفع به، بل شيئاً لانفع له عندك وهو عندنا نافع. فقال له **عمرو**: وماذا تعنى بقولك؟ قال: أعنى ما فى خزائن الروم من كتب الحكمة.

فقال له **عمرو**: إن ذلك أمر ليس لى أن أقطع فيه رأيا دون إذن **الخليفة**. ثم أرسل **عمرو** إلى **الخليفة عمر** كتاباً يسأله فيه الرأى فى ذلك، فأجابه **الخليفة** بقوله: «... وأما ما ذكرت من أمر الكتب، فإذا كان ما جاء بها يوافق ما جاء فى كتاب الله فلا حاجة لنابه، وإذاخالفه فلا أرب لنا فيه واحرقها، فلما جاء هذا الكتاب إلى **عمرو** أمر بالكتب فوزعت على حمامات الإسكندرية لتوقد بها، فما زالوا يوقدون بها ستة أشهر. ثم قال المؤلف: فاسمع وتعجب![1] .

وبعد سردنا لهذه القصة العجيبة نأتى إلى النقطة الثانية، وهى: مسألة تفنيدها ومناقشتها. وقد عنى بهذه المسألة كثيرون من كتاب الغرب المسيحى ذاته، ودافعوا عن المسلمين، ونقضوا القصة من أساسها حتى عروها تماماً عن الحقيقة، من هؤلاء: **سيديو** فى كتابيه: تاريخ العرب العام ومختصر تاريخ العرب، والدكتور/ **غوستاف لوبون** فى كتابه: حضارة العرب، والدكتور/ **ألفريد بتلر** فى كتابه: فتح العرب لمصر، وغيرهم.

---

(١) تاريخ مختصر الدول ص ١٧٦، بتلر: فتح العرب لمصر ٢/٣٤٩.

فقال **سيديو**: «وروى **أبوالفرج** الذى عاش بين سنة ١٢٢٦ - ١٢٨٦ من الميلاد، **وأبو الفدا** الذى عاش بين سنة ١٢٧٣ - ١٣٣١ من الميلاد أن حرق مكتبة السرابيوم تم على إثر استيلاء العرب على الإسكندرية، بيد أننا إذاما فكرنا فى أن انتهاب الإسكندرية لم يقع فى أثناء صولة النصر الأولى، تعذر علينا أن نعتقد صدور أمر بدم بارد بمثل هذا العمل الهمجى»[1] .

ثم قال **سيديو** أيضاً: «ونقل عن بعض المؤرخين أن **ابن العاص** شاور **ابن الخطاب** رضي الله عنه فيما يفعل بكتبخانة سرابيون الشهيرة التى بالإسكندرية، فأمره بإحراقها قائلاً: إن كانت مخالفة للقرآن فمضرة، أو موافقة فغير نافعة. وهو بعيد عن الصدق، فإنه فعل وحشى لا يصدر حال الهدوء والسكون ، على أن دعوى عدم نفعها إذا كانت موافقة ضعيفة أو باطلة لايصح نسبتها إلى هذا الخليفة المشهود له بوفورالعقل لدى سائر الأمة، ولذا لم يذكرها أحد من المؤرخين المعاصرين له رضي الله عنه .»[2] .

ومن الشواهد المهمة التى يؤكد عليها **سيديو، وبتلر، وغوستاف لوبون**، وغيرهم، أن هذه القصة التى يوردها **أبوالفرج وأبوالفدا** لم يوردها أى من مؤرخى فتح العرب لمصر من قبل، لا الذين عاصروا الفتح، ولا مَن جاء مِن بعدهم، فكيف تظل هذه الرواية - إن صحت - ما يزيد على الخمسة قرون فى طى النسيان، ثم تظهر بعد تلك الحقبة الطويلة من الزمن ؟!.

---

(١) تاريخ العرب العام ص ١٣٢.

(٢) خلاصة تاريخ العرب ص ٨١.

وأيضاً يشير جميع من تصدوا لهذه الفرية إلى أن **أبا الفرج** لم يشر إلى مصدر استقى منه روايته تلك، مما يوحى بأنها مجرد قصة مفتراة، على تاريخ الإسلام والمسلمين، لا أساس لها ولا سند! وبخاصة وأنه من غير الجائز ولا المعقول أن تظل القصة تتناقل مشافهة على ألسنة الناس طيلة هذه الفترة، حتى يجيئ **أبوالفرج** فيثبتها ! إذ لو جاز ذلك لانسحب على كثير من أحداث التاريخ ووقائعه غير تلك القصة وهو ما لم يحدث، إذ كانت تلك الفترة خصيبة بكتاب التاريخ وكُتُبه، حتى إن الغربيين أنفسهم نقلوا كل موا دالتاريخ لهذه الفترة عن المؤرخين العرب الذين عاشوها، ودونوا تواريخها.

أما **غوستاف لوبون**، فيقول فى ذلك بوضوح وجزم: «وأما إحراق مكتبة الإسكندرية المزعوم، فمن الأعمال الهمجية التى تأباها عادات العرب، والتى تجعل المرء يسأل: كيف جازت هذه القصة على بعض العلماء الأعلام زمناً طويلاً؟ وهذه القصة دحضت فى زماننا، فلا نرى أن نعود إلى البحث فيها»[1] .

وأما **بتلر** مؤلف كتاب: فتح العرب لمصر، فإنه قد جعل فى مؤلفه مبحثا خاصا مطولاً عن مكتبة الإسكندرية، ناقش فيه كل ما يتعلق بأمرالمكتبة، ودحض القصة المفتراة التى أوردها **أبوالفرج** و**أبوالفدا** من بعده، ودحض شبهة إحراق المسلمين لها.

---

(١) حضارة العرب ٢١٣.

ويخلص بتلر فى مبحثه عن مكتبة الإسكندرية إلى النتائج الآتية، مُقدماً لها بقوله: «ولعلنا لا نكون مخطئين إذا نحن أجملنا فيما يلى أدلة حجتنا، فإن قصدنا أن نبين حقيقة أمر مكتبة الإسكندرية، ومقدار نصيب قصة إحراق العرب لها من الصحة أو الكذب، وقد بينا فيما سلف الأمور الآتية:

أولاً : أن قصة إحراق العرب لها لم تظهر إلا بعد نيف وخمسمائة عام من وقت الحادثة التى تذكرها.

ثانياً: أننا فحصنا القصة وحللنا ما جاء فيها فألفيناه سخافات مستبعدة ينكرها العقل.

ثالثاً: أن الرجل الذى تذكر القصة أنه كان أكبر عامل فيها مات قبل غزوة العرب بزمن طويل.

رابعاً: أن القصة قد تشير إلى واحدة من مكتبتين: الأولى مكتبة المتحف، وهذه ضاعت فى الحريق الكبير الذى أحدثه قيصر، وإن لم تتلف عند ذلك كان ضياعها فيما بعد فى وقت لا يقل عن أربعمائة عام قبل فتح العرب. وأما الثانية، وهى مكتبة السرابيوم، فإما أن تكون قد نقلت من المعبد قبل عام ٣٩١، وإما أن تكون قد هلكت أو تفرقت كتبها وضاعت، فتكون على أى حال قد اختفت قبل فتح العرب بقرنين ونصف قرن.

خامساً: أن كتاب القرنين الخامس والسادس لا يذكرون شيئاً عن وجودها، وكذلك كتاب أوائل القرن السابع.

سادساً: أن هذه المكتبة لو كانت لا تزال باقية عندما عقد **قيرس** صلحه مع العرب على تسليم الإسكندرية، لكان من المؤكد أن تنقل هذه الكتب، وقد أبيح ذلك فى شرط الصلح الذى يسمح بنقل المتاع والأموال فى مدة الهدنة التى بين عقد الصلح ودخول العرب فى المدينة، وقدر ذلك أحد عشر شهراً.

سابعاً: لو صح أن هذه المكتبة قد نقلت، أو لو كان العرب قد أتلفوها حقيقة لما أغفل ذكر ذلك كاتب من أهل العلم كان قريب العهد من الفتح مثل (**حنا النقيوسى**) ولما مر على ذلك بغير أن يكتب حرفاً عنه[1].

وبعد أن ساق **بتلر** هذه النتائج القيمة يختتم مبحثه بتلك العبارة المهمة، فيقول: «ولا يمكن أن يبقى فى الأمر شك بعد ذلك، فإن الأدلة قاطعة، وهى تبرر ما ذهب إليه (**رينودو**) من الشك فى قصة **أبى الفرج**، وما ذهب إليه (**جيبون**) من عدم تصديقها، ولابد لنا أن نقول إن رواية **أبى الفرج** لا تعدوا أن تكون قصة من أقاصيص الخرافة ليس لها أساس فى التاريخ[2] .

وأخلص بدورى – بعد كل ما سبق – إلى بعض الملحوظات التى استقصيتها من خلال مسيرة المسلمين فى فتوحاتهم، وهى:

أولاً : أن سلوك المسلمين فى كل فتوحاتهم، فى مصر وما سبقها لم يَثْبت فيه أى عمل تخريبى كهذا.

---

(١) فتح العرب لمصر جـ٢ ص ٣٦٩.

(٢) فتح العرب لمصر جـ٢ ص ٣٧٠.

ثانياً: إذا كان **عمرو بن العاص** قد سمح للنصارى فى مصر بالعودة إلى كنائسهم وأديرتهم التى دمرها الفرس والروم من قبل أو أحرقوها، وساعد فى إعادة بنائها أو ترميمها، فكيف يصدر منه مثل هذا العمل الشنيع فى حقهم؟.

ثالثاً: ومادام **عمرو** قد أباح لنصارى مصر حريتهم الدينية أكثر من ذى قبل، وكتبهم تعتبر حقاً خاصاً لهم، فكيف يحرقها إذن؟ ألا يعد ذلك منه – لو كان – إخلالاً بعهد قطعه على نفسه؟ مع أنه لم يثبت أن أخل المسلمون بعهد من عهودهم فى أى ناحية من النواحى، طيلة مسيرة الفتح.

رابعاً: وإذا قد ثبت أن **الخليفة عمر** لم يشأ أن يصلى فى صحن كنيسة القيامة بالقدس، حتى لا يتخذها المسلمون من بعده مسجداً، فهل يتصور ممن كان هذا خلقه أن يأمر بإحراق مكتبة للعلوم نافعة؟!.

خامساً: ولو افترضنا جدلاً أن المسلمين كان من عاداتهم إحراق كل الكتب التى يجدونها فى البلاد المفتوحة، لصار ذلك فى كل بلد فتحوه. ولكن الثابت غير ذلك، حيث اتصل المسلمون بحضارات فارس واليونان، وترجموا علومها، فأخذوا النافع منها، وبنوا عليه وأضافوا إليه، لتخرج للناس تلك الحضارة الإسلامية الرفيعة والرائعة، والتى كانت أطول عمراً فى تاريخ البشرية من كل ما سبقها من حضارات.

سادساً: أن الغالبية من كتاب الغرب الذين دافعوا عن المسلمين فى هذه المسألة، لو عَنَّ لهم ولو من بعيد أدنى شبهة أو شك فى أن يقترف

المسلمون مثل هذا الجرم لما سكتوا عنه، ولقاموا بمناقشته والاستزادة فيه، كما هى عادتهم فى كل المسائل التى يسعون بها للنيل من قدر الإسلام والمسلمين.

أما بخصوص **أبى الفرج** راوى القصة،فبالإضافة إلى ما ساقه بتلر بصددها، وتحليلاته الجادة الجازمة بشأنها، فإنى أرى أن أسجل الملحوظات التالية:

أولاً: كتاب **أبى الفرج** ليس كتاباً ثقة فى التاريخ، يعتد به أو يعول عليه؛ فهو يورد الأخبار والروايات مقتضبة، وبشكل غاية فى الاختصار، ومن دون أن يعلل لها أو يناقشها، أو ينسبها إلى أصل نقل عنه.

ثانياً: أن القصة لم يتناولها أحد من المؤرخين القريبين من أحداث الفتح مثل: **ابن عبد الحكم، ابن عذارى، الطبرى، سعيد بن بطريق.** وكذا لم يتناولها أحد ممن جاءوا من بعد، وكانوا قريبين من زمن **أبى الفرج** مثل: **المقريزى،السيوطى،ابن خلدون،أبو صالح الأرمنى**... إليخ مما يزيد من الشك فيها وفى من أوردها.

ثالثاً: كان **ابن العبرى** نصرانيا من أصل يهودى، فلا تسلم كتابته من الشبهة، أو السقطة باعتباره ينقل بدون تعليل. وحتى عنوان كتابه، أرى أنه لم يدقق فى اختياره، فكان يجوز أن يسميه: «مختصر تاريخ الدول» أو «التاريخ المختصر للدول» لأن الاختصار يجوز أن يلحق التواريخ، ولا يلحق الدول.

رابعاً: كان **ابن العبرى** قسيساً مخلصاً لدينه ولوظيفته، ولم يكن مؤرخاً، فإذا جمعنا هذا مع كل ما سبق يصبح من المحتمل أحد أمرين:

أولهما: أنه ربما عمد إلى تصنيف هذا الكتاب ليخلد به ذكراه، دون أن يكون أهلاً للتأريخ.

والثانى: أنه ربما قد كلف أحداً من أتباعه بكتابة ما اجتمع لديه من الأحداث، وصياغتها بهذا الشكل لتكون تاريخاً.

خامساً: وحتى نص القصة عند **أبى الفرج** غير متسق؛ فإذا كان **يحيى النحوى**، - كما يسميه **أبوالفرج**، أو «**حنا الأجرومى**» كما يسميه **بتلر** -، بطل هذه القصة قد طلب تلك الكتب لنفسه فكيف يرد عليه **عمرو** بإحراقها؟ مع أنه - أى **عمرو** - كان محباً **ليحيى**، مفتوناً به، حسبما يرى **أبو الفرج** نفسه!.

سادساً: يقول **أبو الفرج** بعد سياقه للقصة: «فاسمع ما جرى وتعجب»، ولم يخبرنا عن دواعى العجب فيها، وهى من وجهة نظرى لاتعدو أمرين، يمكن أن يكون أحدهما هو الداعى للعجب. فهو إما يتعجب من هذا الصنيع السيء الذى أتاه المسلمون، وشناعة جرمهم، أو يتعجب من أن هذا الفعل السيء لا يمكن أن يقع من المسلمين الذين لم يسجل لهم التاريخ جرماً مثله. وسواء كان قصده هذا أو ذاك، فقد كان عليه أن يفند المسألة، وينقاشها مع من نقل عنه، حتى يصل فيها إلى رأى، بدلاً من أن يطلقها على عواهنها، ويترك القارىء حائراً فى أمرها. فالعجب هنا من فعله هو، لا من كون المسلمين أحرقوا المكتبة أم لا.

سابعاً: إن **أبا الفرج** قد عاصر نهاية أحداث الحروب الصليبية فى الشرق الإسلامى، وكان قريباً من أحداثها الأولى منذ بدأت فى السنوات الأخيرة من القرن الحادى عشر الميلادى. فلعله لسبب ما أراد أن يمس تاريخ المسلمين بما يشوهه ويعيبه، ليبرر بذلك لما يقترفه الصليبيون فى حق شعوب السشرق ومقدساتهم... ربما.

وتبقى بعد ذلك النقطة الثالثة المثارة فى هذا الصدد وهى: تاريخ المكتبة، ومتى أحرقت؟ ومن الذى أمر بإحراقها؟ وفى هذا الصدد توصل **بتلر** فى بحثه المطول إلى أن المكتبة لم يكن لها وجود فى القرن السابع الميلادى، الذى تم للعرب فيه فتح مصر، وأن حقيقة إحراقها تعود إلى عام ٣٩١ وما قبله، وأن ذلك الإحراق تم على أيدى الأباطرة النصارى، الذين عمدوا إلى هدم وإزالة كل ما يمت للوثنيين بصلة، حيث كان نضال المسيحيين مع عبدة الأوثان يزداد شدة وهولاً كلما ازداد المسيحيون قوة، وكان السرابيوم بلا شك حصن الوثنية وملاذها، وظل الوثنيون مدة يغيرون من هناك على المدينة، ويقتلون أشد المسيحيين عليهم، وقد انتفعوا فى ذلك بمناعة السرابيوم.. ولكن قبل أن يصل النضال إلى نهايته، اتفق الجانبان على تحكيم الإمبراطور فيما بينهم، فقضى **(تيود وسيوس)** للمسيحيين وقرئ حكمه على الناس من الفريقين فى ساحة السرابيوم فهرب عبدة الأوثان المصرية القديمة، وأهوى المسيحيون إلى المعبد العظيم، معبد **(سرابيس)**، وعلى رأسهم **(نيوفيلوس)**، وجعلوا يهدمونه ويخربون فيه، وكان ذلك فى عام ٣٩١م، ولا يختلف فيه اثنان[١] .

---

(١) فتح العرب لمصر ٢/٣٥٩.

وقد أكد على هذا الدكتور **غوستاف لوبون**، فى بحث مطول أيضاً، ناقش فيه تاريخ مكتبة الإسكندرية، ومن الذى أحرقها حقيقة فكان مما قاله: «... ولما أصبحت النصرانية دين الدولة الرسمى أمر القيصر النصرانى (**ثيودوز**)- لا **الخليفة عمر بن الخطاب** - بإبادة معابدها وتماثيلها وكتبها الوثنية»[١] .

كما قد أكد على ذلك **سيديو**، فقال فى مسألة مكتبة الإسكندرية: «فإن معظمها أحرق فى عهد الملك (**تيودوس**) سنة تسعين وثلاثمائة بعد الميلاد»[٢] . «وما كان بالإسكندرية شىء يستحق التلف بالحقيقة غير أسوارها وما كان **عمرو بن العاص** ليهدم هذه الأسوار إلا بعد أن رفع سكانها راية العصيان بالحقيقة»[٣] .

ولا أرى فى ختام هذا المبحث إلا أن أُثبت الخلاصة القيمة التى توصل إليها **غوستاف لوبون** وأكدها حين قال: «... ولا شىء أسهل من أن نثبت بما لدينا من الأدلة الواضحة أن النصارى هم الذين أحرقوا كتب المشركين فى الإسكندرية قبل الفتح العربى بعناية كالتى هدموا بها التماثيل، ولم يبق منها ما يحرق»[٤] .

---

(١) حضارة العرب ص ٢٣.
(٢) خلاصة تاريخ العرب ص ٨١.
(٣) تاريخ العرب العام ص ١٣٢.
(٤) حضارة العرب ص ٢١٣.

خلاصة البحث

فى ختام هذا البحث الذى نقبنا من خلاله عن الأبعاد الحضارية فى حركة الفتوحات الإسلامية ومسيرتها فى عصرالراشدين – وهى فوق أن تحصى – أرى أنه من اللازم أن نشير إلى قليل من كثير مما احتوته هذه المسيرة من الملامح الحضارية، والسلوكيات الإسلامية الرفيعة، التى تُميز هذه الحركة عن سواها من كل حركات الفتح الأخرى التى شهدها تاريخ البشرية.

وقد تجلت هذه الملامح فى فتوحات الإسلام منذ اللحظة الأولى فى بدايتها، فهى ماثلة فى دوافعها وأهدافها، قبل أن تتمثل فى أحداثها ووقائعها ونتائجها.

وما ذاك إلا لأن حركة الفتوحات الإسلامية لم ترتكز فى دوافع قيامها على مثل ما ارتكزت عليه حركات الفتح الأخرى. وعليه ، فلم تكن فى سيرتها وأحداثها على شىء مما كانت عليه تلك الحركات الأخرى.

وحتى الحركات التى ادعت أنها قامت من أجل هدف سام أو عمل إنسانى عام ونافع، وادعى قادتها ودُعاتها نبل الغاية وسمو الهدف، لم تتم خطتها، ولم تكن فى مسيرتها تشبه شيئاً مما كان عيه المسلمون فى فتوحاتهم، أو تقترب منه.

ومن هنا فلا يمكن لأى كاتب أو مؤرخ أو ناقد منصف، مسلما كان أم لا، أن يجعل مجالاً للمقارنة بين عملية الفتوحات الإسلامية وفتوحات **الأسكندر المقدونى** مثلاً، أو فتوحات الأوربيين فى مطلع العصور الحديثة،

فيما سمى بالكشوف الجغرافية، التى أفرزت فى النهاية سلسلة طويلة من الصراعات الاستعمارية لم تستطع أمم العالم التخلص من آثارها حتى الآن.

كما لا يمكن أن نقارن بين فتوحات المسلمين وهجمات المغول التخريبية التى لا يعلم المرء لها سبباً واحداً وجيهاً حتى الآن. ولا مقارنتها كذلك بحملات الصليبيين على بلدان المشرق الإسلامى، التى أحدثوا فيها مالا يصدقه عقل، أو يُعتقد أن فيه شىء من الإنسانية.

وطبعاً كان كل هذامما يعطى مسيرة الفتح الإسلامى بعداً خاصاً، لتأتى نتائجها أيضاً بشكل خاص، به تمكن المسلمون من السيادة العامة والعالمية، وازدهرت دولة الإسلام، التى حكمت الدنيا وتسيدتها، بمبادئ العدل والحق والمساواة. وأنتجت حضارة إسلامية وإنسانية رفيعة المستوى، ظهرت آثارها – وما تزال – فى كل أنحاء المعمورة.

بهذه الحضارة انتقلت البشرية من حضارة المادة الفارغة من كل قيم الرحانية والوجدان، إلى حضارة تهتم فى الإنسان وله بجانبى الروح والمادة، وكان لها أبلغ الأثر فى تحضير الأمم والشعوب من بعد، وحتى بعد أفول نجم الحضارة الإسلامية، وانحلال دولتها.

وما تزال حضارة الغرب إلى اليوم والتى بلغت درجة عظيمة من التقدم العلمى والتطور التكنولوجى والاهتمام برفاهة الجسم البشرى دون روحه، ما تزال بحاجة إلى ما يعالج فيها جوانبها النفسية والروحية، لتتحلل من هذا العقم والقصور.

ولن تجد البشرية ذلك إلا فى حضارة الإسلام التى ما تزال أصولها ثابتة وباقية، وهى فقط تحتاج إلى التفعيل والاستنهاض، إذا ما أرادت البشرية الفواق مما هى فيه من عبودية المادة، وخواء الروح، وأيدلوجيات العلمانية المقيتة.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

دكتور/ مغاورى منصور

مصادر ومراجع البحث

أولاً: المصادر العربية:

القرآن الكريم.

ابن الأثير (عزالدين أبو الحسن على بن أبى الكرم محمد بن محمد بن عبد الكريم بن عبد الواحد الشيبانى) ت ٦٣٠هـ:

١ - الكامل فى التاريخ. طبعة بيروت ١٩٧٩م.

ابن بطريق (أفتيوش المكنى سعيد بن بطريق) (البطريرك) مولود ٨٧٦م:

٢ - التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق. الجزء الثانى. بيروت ١٩٠٩م.

ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن بن يوسف) ت ٨٧٤هـ:

٣ - النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة.
القاهرة. (بدون).

الدينورى (أبو حنيفة أحمد بن داود) ت ٢٨٢ هـ:

٤ - الأخبار الطوال. تحقيق/ عبد المنعم عامر.
بيروت. (بدون).

ابن سلام (أبو عبيد القاسم) ت ٢٢٤هـ:

٥ - كتاب الأموال. الطبعة الأولى. بيروت ١٩٨١م.

الطبرى (أبو جعفر محمد بن جرير) ت ٣١٠هـ:

٦ – تاريخ الرسل والملوك. تحقيق/ د. محمد أبو الفضل إبراهيم.
الطبعة الرابعة، دار المعارف بمصر ١٩٧٩م.

ابن عبد الحكم (أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الحكم بن أعين القرشى المصرى) ت ٢٥٧هـ:

٧ – فتوح مصر وأخبارها. طبع ليدن ١٩٢٠م.

ابن العبرى (غريغوريوس أبى الفرج بن أهرون) ت ١٢٨٦:

٨ – تاريخ مختصر الدول.
دار الرائد اللبنانى . بيروت ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

قدامة بن جعفر بن قدامة: ت ٣٢٩ هـ:

٩ – الخراج وصناعة الكتابة. تحقيق / د. محمد حسين الزبيدى.
بغداد ١٩٨١م.

القرطبى (أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصارى) ت ٦٧١هـ:

١٠– تفسير القرطبى . القاهرة (بدون).

ابن كثير (إسماعيل بن عمر) ت ٧٧٤هـ:

١١– البداية والنهاية. الطبعة الثانية
بيروت. ١٣٩٤هـ/١٩٧٤م.

الإمام مسلم (أبو الحسين مسلم بن الحجاج بن مسلم القشيرى)
ت ٢٦١هـ:

١٢- صحيح مسلم.

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على) ت ٨٤٥هـ:

١٣- المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار. المعروف بالخطط المقريزية بيروت (بدون).

ابن منظور (محمد بن مكرم بن على بن أحمد بن أبى القاسم) ت ٧١١هـ:

١٤- لسان العرب. طبعة دار المعارف بمصر (بدون).

النويرى (شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب) ت ٧٣٣هـ:

١٥- نهاية الأرب فى فنون الأدب. الجزء التاسع عشر
تحقيق/ د. محمد أبو الفضل إبراهيم. القاهرة ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م.

ياقوت (شهاب الدين أبى عبد الله ياقوت بن عبد الله الحموى)
ت ٦٢٦هـ:

١٦- معجم البلدان. بيروت ١٣٧٦هـ/ ١٩٥٧م.

اليعقوبى (أحمد بن أبى يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح)
ت ٢٩٢هـ:

١٧- تاريخ اليعقوبى. دار صادر، بيروت (بدون).

أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم الأنصارى) ت ١٨٢هـ:

١٨- كتاب الخراج، الطبعة السادسة. المطبعة السلفية ١٩٧٧م.

ثانياً: المراجع والدوريات:

إبراهيم أحمد العدوى (الدكتور):

١٩- الأمويون والبيزنطيون. الطبعة الثانية القاهرة ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م.

أبو اليسر فرح (الدكتور):

٢٠- مصر فى عصرى البطالمة والرومان. القاهرة (بدون).

أحمد أمين.

٢١- فجر الإسلام. الطبعة الثانية عشر. القاهرة ١٩٧٨م.

ألفريد. ج. بتلر:

٢٢- فتح العرب لمصر. تعريب/ محمد فريد أبو حديد. القاهرة ١٩٨٩م.

توماس أرنولد (السير):

٢٣- الدعوة إلى الإسلام (بحث فى تاريخ نشر العقيدة الإسلامية).
ترجمة د/ حسن إبراهيم حسن، د/ عبد الحجيد عابدين.
الطبعة اثالثة. القاهرة ١٩٧٠م.

جلال مظهر:

٢٤- مآثر العرب.

جورجي زيدان:

٢٥- تاريخ التمدن الإسلامى. بيروت (بدون).

حسين مؤنس (الدكتور):

٢٦- الإسلام الفاتح. الطبعة الأولى. القاهرة ١٩٨٧م.

زيغريد هونكة (الدكتورة):

٢٧- شمس العرب تسطع على الغرب:

ترجمة / فاروق بيضون وكمال دسوقى. بيروت ١٩٦٩م.

ستيفن رنسيمان:

٢٨- تاريخ الحروب الصليبية. تعريب د/ السيد الباز العرينى.

الطبعة الثانية. بيروت ١٩٨١م.

السيد الباز العرينى (الدكتور):

٢٩- الدولة البيزنطية . بيروت ١٩٨٢م.

ل.أ. سيديو:

٣٠- تاريخ العرب العام. ترجمة / عادل زعيتر.

الطبعة الثانية. الحلبى بمصر ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

٣١- خلاصة تاريخ العرب.

الطبعة الثانية. بيروت ١٤٠٠هـ.

شكرى فيصل (الدكتور) :

٣٢- حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول.
الطبعة الرابعة. بيروت ١٩٧٤م.

صموئيل تاوضروس السريانى (القمص) :

٣٣- الأديرة المصرية العامرة. الطبعة الأولى
القاهرة ١٩٦٨م.

عبد الشافى محمد عبد اللطيف ، محمد جبر أبو سعدة (الدكتوران) :

٣٤- التاريخ الإسلامى من ظهور الإسلام حتى سقوط الدولة الأموية،
القاهرة ١٩٨٧م.

عبد الكريم زيدان (الدكتور) :

٣٥- أحكام الذميين والمستأمنين فى دار الإسلام.
بيروت ١٩٨٢م.

أبو الحسن على الحسينى الندوى :

٣٦- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين.
القاهرة ١٤٠٩هـ/١٩٨٩م.

غوستاف لوبون (الدكتور) :

٣٧- حضارة العرب. ترجمة/ عادل زعيتر.
مطابع الحلبى بمصر. ١٩٦٩م.

فان فلوتن:

٣٨- السيادة العربية فى عهد بنى أمية

ترجمة/ د. حسن إبراهيم حسن ومحمد زكى إبراهيم

الطبعة الأولى. القاهرة ١٩٤٣م.

كـــيرك:

٣٩- موجز تاريخ الشرق الأوسط.

ترجمة/ عمر الإسكندرى. القاهرة (بدون).

محمد صبيح:

٤٠- مواقف حاسمة فى تاريخ القومية العربية

الطبعة اثانية. القاهرة ١٩٦٥م.

محمد فتح الله الزيادى:

٤١- انتشار الإسلام وموقف المستشرقين منه.

الطبعة الأولى. بيروت ١٩٩٠م.

محمد ياسين مظهر:

٤٢- الهجمات المغرضة على التاريخ الإسلامى.

ترجمة/ د. سمير عبد الحميد إبراهيم. مطبوعات رابطة الجامعات الإسلامية. (بدون).

مصطفى السباعى (الشيخ الدكتور):

٤٣- من روائع حضارتنا. الطبعة الرابعة. بيروت ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م.

أبو الأعلى المودودى:

٤٤- شريعة الإسلام فى الجهاد والعلاقات الدولية.
ترجمة/ د. سمير عبد الحميد إبراهيم. الطبعة الأولى ١٩٨٥م.

نفتالى لويس:

٤٥- الحياة فى مصر فى العصر الرومانى. ترجمة/ د. آمال الروبى. الطبعة الأولى. مؤسسة عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية. ١٩٩٧م.

ول. وايريل ديورانت:

٤٦- قصة الحضارة. الجزء الثالث من المجلد الرابع.
ترجمة / محمد بدران. الطبعة الثالثة. القاهرة ١٩٧٤م.

فهرست بموضوعات البحث

الموضـــــــوع	الصحيفة

الموضـــــــوع	الصحيفة